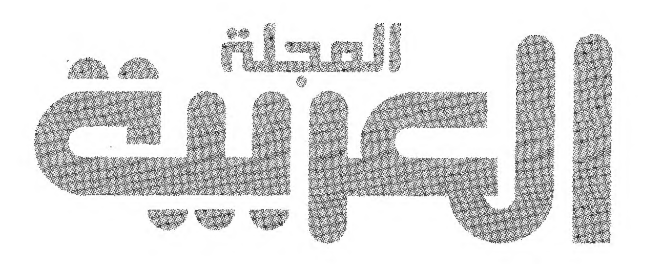
اليد واللسان

القراءة والأمية ورأسمالية الثقافة



رئيس التحرير

د. عثمان بن محمود الصيني

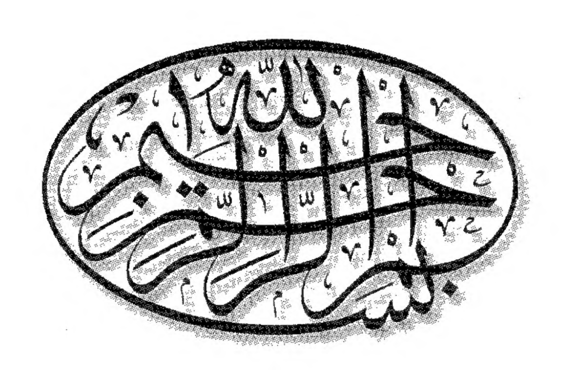
الرياض – طريق صلاح الدين الأيوبي (الستين) – شارع المنفلوطي

هاتف: 4778990 - 4779792 فاكس: 4766464

ص.ب 5973 الرياض 11432

المملكة العربية السعودية

www.arabicmagazine.com - info@arabicmagazine.com



الإهداء

إلى الروح الطاهرة محمد السليم

ح المجلة العربية 1431هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الغذامي، عبدالله محمد

اليد واللسان: القراءة والأمية ورأسمالية الثقافة.

/ عبدالله محمد الغذامي - الرياض ، 1432هـ

160 ص، 21x14 سم

(سلسلة كتاب المجلة العربية، 172)

ردمك: 1_00_8086_603_978

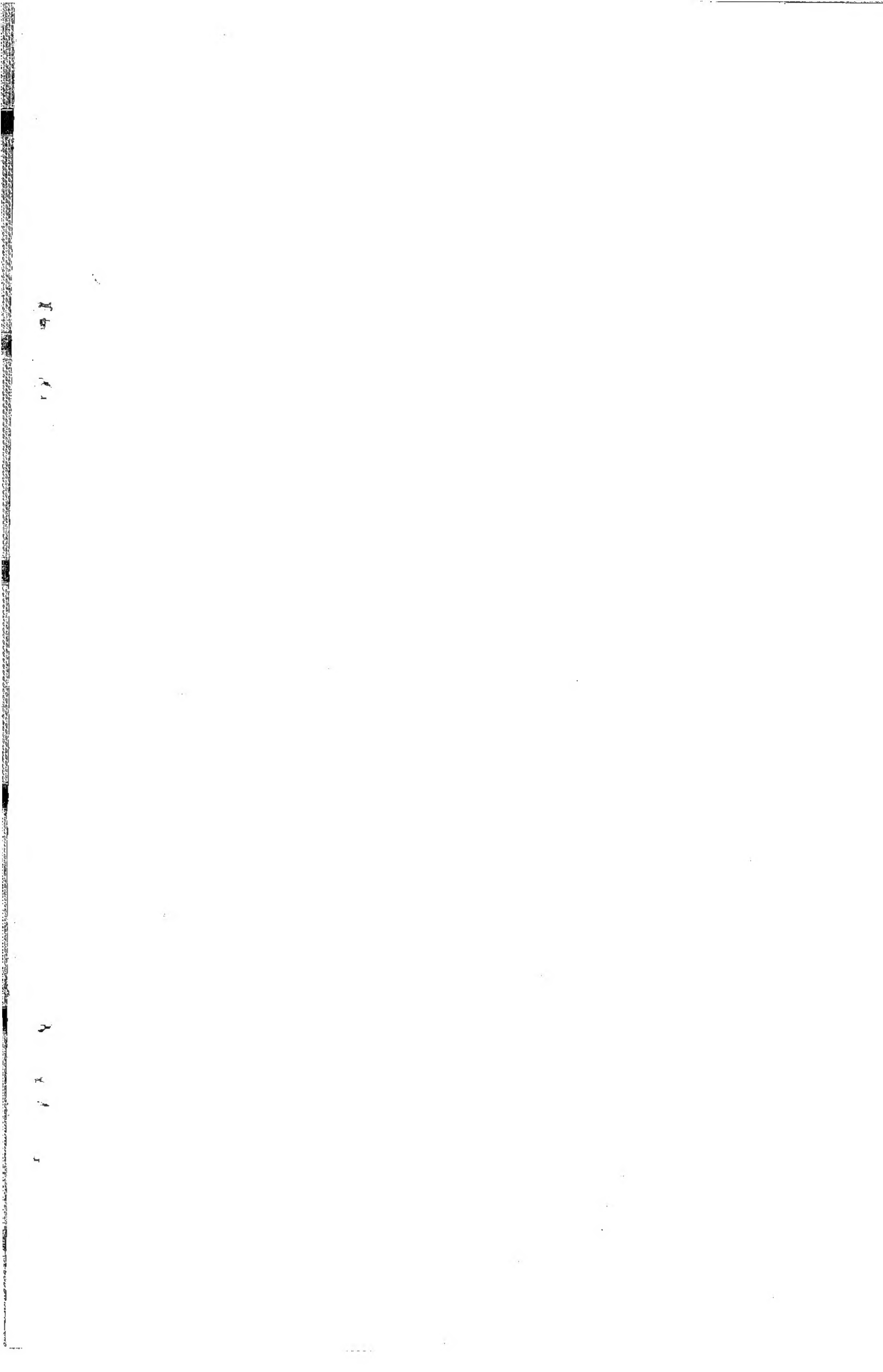
1 - الأدب العربي - نقد - السعودية أ.العنوان

ديوي 810.99531 1432/2606

رقم الإيداع: 1432/2606

ردمك: 1_00_8086_603_978

المحتوى



المقدمة

اليد واللسان

كان المنظـر مرعبـاً، وقد وقـع في إحدى قرى منطقة سـدير، وكان ذلـك في فـترة تاريخية تقع بين عهدين من عهود الدولة السـعودية أو هو عقب سـنين سـقوط الدولة الثانية، وهو حـادث واقعي وأوحش مـا فيه واقعيته المرعبـة، وكان ذلك في أحد الكتاتيـب حيث أمر المعلم واحداً من التلامذة بأن يمسـك باللوح لكي يـشرع في تعليمه الكتابة، وما أن قال المعلم ذلك حتى تفاجأ الجميع بأن الولد يحمل نفسه ويفر خارج الكتـاب، وهو يصرخ ويجري بسرعة مذهلة وكان يتبدى عليه الذعر وجسـده كلـه ينتفض وقد احمر جلـده وجحظت عيناه، وغاب عن الدراسة أسـبوعاً، وبعد أن حضر الولد ثانية حاول المعلم توجيهه للـوح الكتابـة فتكررت حالـة الرعب عنـده، وفر مرة أخـرى مخلفاً الهلـع والتخـوف بين زملائه، وهو يكـرر التصرف للمـرة الثانية، وفي هـذه المرة أخذ الطلبـة وبعض المتطوعين ممن تكـرر الموقف أمامهم، أخـذوا بالركض وراءه، وظل هـو يعدو ويلتفت من خلفه وكلما رآهم يتبعونـه بالجـري زاد من سرعته ولـم يجدوا بداً مـن زيادة سرعتهم للحـاق به، وكان من عجبهم أن لا أحد يعرف هذا الطفل فعلاً ولا أحد يعرف أين مسكنه ولا ما هي وجهته الهارب إليها، ولكنهم تابعوا مرآه

من بعيد وتوسـلوا بالتعرف على وقع أقدامه على الأرض لكي تقودهم أبصارهم إلى مسـالك الـدرب، إلى أن وصلوا إلى غرفة منعزلة على طرف القرية بإزاء بسـتان صغير، وهناك أطلوا على داخل الغرفة ليروا رجلاً مسناً، وشـاهدوا يده اليمنى مقطوعة، ومن حوله الطفل وقد تطوى عليه وهو يصرخ وينتفض ويتصبب عرقاً، حتى لقد كان وجيف قلبه يصل إلى مسـامعهم وكأنما يرون عروقه وهي تتفجر بالدماء الحارة والمرتعبة منهم.

لم يطل بهم التسـاؤل إذ أشهر الرجل يده اليمنى في وجوههم، وقال لهـم: لا تعجبوا من تصرف ولـدي، فهذه يدي تروي لكم سر مخاوفه، وراح يـروي لهـم أنه رجل لديه شيء من العلم وكان يسـعى إلى كتابة التاريـخ، وشرع فعلاً في ذلك حيث بدأ يسـجل أحـداث زمانه وما يمر بالبلاد من أسـواء وأهوال، وما لبث والي البلاد حينها أن اكتشـف فعلة هذا الرجل في تسجيله التاريخ وسرده لأفعال هذا الوالي وأعوانه بالناس في تلـك البلـدة، فما كان من الوالي إلا أن قطـع يد الرجل كي يمنعه من الكتابة، وظل الرجل يعيش مأساته، ويقدم يده المقطوعة شاهدة على ما جرى له.

هـذه هي الصـورة والقصة المرعبة التي تسـببت في ذعر الطفل من منظـر اللوح والقلـم، وهو الرعب الـذي يوحي له بقطـع اليد، وكان يتمنى دراسة لا تحتاج إلى كتابة، وعلماً لا يحتاج إلى لوح وقلم، على أن تبقى له يده كاملة ويبقى له سائر جسده دون قطع.

جرى ذلك وصار فعلاً في فترة من تاريخ منطقة نجد حينما سادت الفوضى بعد سقوط الدولة السعودية الثانية، وقد سمعت القصة يرويها الشيخ عبدالعزيز بن عبدالمحسن التويجري -رحمه الله- ويؤكد على حدوثها وواقعيتها.

وهي قصة تاريخية تتكرر على مدى التاريخ كله، وإن بصيغ متنوعة، وفي القديم الجاهلي كانت قصة عبديغوث الحارثي وكان رأس قومه وشاعرهم، ووقع مرة في الأسر وخاف آسروه من قصائده، فما كان منهم إلا أن ربطوا لسانه بنسعة نعل، أي بخيط من الخيوط التي تحاك بها النعال، وهم إذا ربطوا لسانه فإنهم يسلمون من تحرك هذا اللسان بالأشعار، ولو تحركت الأشعار لقالت وفضحت وستسري بها الروايات، وقصة هذه الحادثة مروية بتفاصيلها بقصيدة عبديغوث الحارثي الشهيرة (ألا لا تلوماني كفى اللوم مابيا)، وهي من عيون قصائد العرب وإحدى مختارات المفضل الضبي في كتابه المفضليات، ومنها بيت القصيد الذي يقول:

أقول وقد شدوا لساني بنسعة

أمعشر تيم أطلقوا عن لسانيا

ولقد جرى هذا في زمن الشفاهية حيث لم تكن اليد تكتب, ولو كانت يد الشاعر تكتب حينها لجرى له ما جرى للمؤرخ النجدي وقطعوا يده.

تلك ممارسة قديمة ومستمرة، ونحن اليوم نسمع عن اتفاق

تاريخي سـموه ميثاق الـشرف الإعلامي، وهو ميثــاق فيه تقنين لليد واللســان وتلويح بقطعهمــا فيما لو تجاوزا الحــدود، مثلما يجري في منع بعـض الفضائيات والصحف وحجب الكتابــات ومصادرة حرية التعبـير والتفكير، هذا في الشرق ولن ترى الغرب سـليماً من هذا أيضاً إذ يضعون قانوناً أساسـياً حول سرية المعلومات، ولا تباح السرية إلا بعد مرور ثلاثين سنة عليها مع شرط زوال أسباب السرية، وإن لم تزل ضلت مشروطة بالكتمان، ومن خالفها عوقب معاقبة قانونية تشبه قطع اليد، وإن بصيغة مجازية.

تخاف الثقافات من اليد واللسان إذا تعلمتا كسر السر، وكان طرفة بن العبد قد دفع ثمناً باهظاً لقاء طول لسانه, وقد حذره خاله حينما رأى له لســاناً مشاغباً, وقال له كلمته المشهورة: «ويل لهذا من هذا»، مشـيراً إلى رأســه وإلى لســانه، وهذا ما حدث فعلاً، حيث انتهى طرفة مقطوع اللســان والرأس من سـلطان زمانه. وكانــت العرب تقول في أمثالهــا: «من ألف فقد اسـتهدف»، أي صار هدفاً وقدم يده ولســانه واســمه أهدافاً لمن يلوكهــا بالقطع الحسي أو المعنوي. ونحن نشــهد عصر الإنترنت وكيف يجري سلخ أي إنسان يتجرأ على قول غير متفق عليــه، أي أنك بين حدي سـكين أحدهما سـلطوية رسـمية وثانيهما سـلطوية شـعبوية وفئويــة, وأنت واقــع في إحدى الســلطتين غالباً، ومــن ذلك التخوين والتكفير والتســفيه، ولكل واحد مــن هذه الثلاثة صيغتــه وســماته ونظامه اللفظي والسـلوكي. وكلها صيغ نســقية

تقطع اليد أو اللسان أو الاسمية حيث تضع اسم المخالف والمختلف في خانة المستهتر به لكي تجري تصفية مقامه ومنع قدراته التأثيرية. ولقد كانوا سابقاً يخافون من سطوة الشاعر ولذا حذرهم المتنبي بقوله: «وعداوة الشعراء بئس المقتنى»، ومن قبله كان الفرزدق يفتك بخصومه النحويين وقد قال بيته الشهير:

«ولو كان عبدالله مولى هجوته / ولكن عبدالله مولى مواليا»، وكل ذلك لأن ذلك النحوي أشار إلى خطأ لغوي وقع فيه الفرزدق فجاءه التعنيف السلطوي لفظياً, ولو كان الفرزدق حاكماً لقطع لسان النحوي أو فقأ أذنيه كيلا يسمع الشعر الملحون.

هناك نازع ثقافي باتجاه الرأي الواحد والصوت الواحد والرأس الواحد فكرياً واجتماعياً وسياسياً، وكل حالة اختلاف هي حالة مروق، وظل اللسان في زمن الشفاهية هو مصدر الخطر وهو الخط الأحمر، ثم جاءت ثقافة الكتابة لتجعل اليد هي القيمة الثقافية المشاغبة، واليوم جاءت الآلة الجديدة، التي هي (لوحة المفاتيح) لتكون إضافة أخرى للآلتين التقليديتين، اليد واللسان، وفي هذه الأدوات تكمن الألاعيب كلها، لعبة التغالب والتكالب، ففي الوقت الذي يكون اللسان أداة لحرية التعبير فإنه أيضاً أداة للتسلط ومثله الكتابة ومثلهما لوحة المفاتيح، وفي كل منها أبواب للقول والكشف والنقد من جهة، مثلما فيها أبواب للقمع والعدوان اللفظي والثقافي. والذي يظل دائماً ويبقى هو قدرة الإنسان على اكتشاف سبل التعبير واختراع حيل لا حصر

لهـا في ذلك، حتى ليكتب بدمه إذا اسـتعصت عليه الأقلام، وحدث ذلك كثيراً للسجناء ولأناس ماتوا بعد أن سجلت دماؤهم قصتهم وكشفت قتلتهـم، مثلما ماتت أيادٍ كثيرة وألسـنة كثيرة من قبل سـائر أعضاء أجساد أصحابها لأنها نطقت بالممنوع. ولا شك أن أهم تواريخ الثقافة هـي قصص المواجهـة بين القامـع والمقموع، ولقد اختـار هاملت في مسرحية شكسـبير أن يتقمص صـورة المجنون كـي يقول ويفضح مؤامرات القتلة تحت لغة الجنون فيسـلم بجسده بدعوى أنه لا يعقل مـا يقـول، ولكنه في الوقت ذاته أخرج السر مـن جوفه وخفف ضغط الضمير عليه.

وتظـل اليد واللسـان كائنين حيوانيـين لهما قدرة عـلى فعل الشيء ونقيضه، منفصلين حيناً ومترابطين حيناً آخر.

***

وفيمـا يلي مجموعة مـن المقالات حول القراءة والأمية ورأسـمالية الثقافـة كانت قد ظهـرت تباعاً في ملحق جريـدة الرياض الثقافي على عدد من الحلقات في أواخر العام 2009 حتى منتصف 2010م.

الفصل الأول

القراءة: مفاهيم أولية

نقرأ / لا نقرأ

- 1 -

هل نحن حقاً أمة لا تقرأ...؟!

هكذا جاء السؤال بداية[1]، وهو سؤال يقوم على الفرضية ونقيضها، فهو يجمع بين الشك واليقين، مبتدئاً بالشك حيث يقول: هل نحن حقاً، وكلمة (حقاً) هنا تقدم إحساساً أولياً بالشك من صحة ما سيأتي بعدها، والآتي هو الافتراض أننا أمة لا تقرأ. وإني لأحيي هذه الصياغة وبهذه الطريقة للسؤال، حيث أنني سبق أن أعلنت مراراً ترددي عن قبول الدعوى الشائعة التي تقول إن العرب لا يقرؤون، وهي الدعوى التي تم تكريسها بأن العرب لا يقرؤون ويجري الانسياق وراء قطعية المقولة، ومن هنا تأتي عندي الفرحة بما أوحى به هذا السؤال المطروح هنا حيث وضع الفرضية بين حدي الشك واليقين مقدماً الشك، مما يفتح المجال للمناقشة ومحاورة الفكرة، وهي فكرة سيكون نقاشي لها منصباً على الشك في صحتها، وهذا ما ستطرحه مداخلتي هذه.

ولسوف أدخل للموضوع عبر طرح أسئلة عدة هي:

أ - ما القراءة؟

---

(1) كان الموضوع مقترحاً من مؤسسة الفكر العربي ، وقد جرى طرحه في مؤتمر المؤسسة في بيروت 2-1 أكتوبر 2009 .

ب - ما المقروء؟

ج - ما العلاقة بين القراءة والثقافة...؟

تلك قضايا لا بد من التبصر بها قبل الجزم بالإجابة عن السؤال المطروح، ولسوف أبادر وأقول إن تصور هذه الأسئلة سيعزز الشكوك في الفرضية وربما يلغيها أو في الأقل يزيح قطعية الفرضية ويجعلها في حدود المتساءل عنه لا المقطوع به.

ـ 2 ـ

ما القراءة (والأذن تقرأ)؟

يجب هنا ألا نغفل أن ما نسميه بالقراءة هو مجرد وسيلة إرسال واستقبال، والكلمة المكتوبة على الورق هي تصوير للمنطوق، وهي صورة تحول الكلمة من صوت مسموع إلى رسم منقوش، وهذا تغيير في صيغة الإرسال، وبدلاً من أن أقول إني جائع بصوتي وعبر حنجرتي فإني أستعين بورقة وقلم وأكتب الجملة بدلاً من نطقها، ولا شك أن نجاح هذه العملية لكي تصل إلى الطرف المستقبل يحتاج إلى شرطين أحدهما أن تكون له عين مبصرة ترى الصورة المرسومة على الورق، والثاني أن يكون قادراً على فك العلامة المرسومة ويعرف قراءة الكلمات. وهنا سنقول إن المعري مثلاً وطه حسين لن يتمكنا من ذلك، كما أن امرأ القيس سيعجز عن استقبال هذه المعلومة مع اختلاف السبب. وهذا

مثال بسـيط وواضح، وأوضح منه هو أن نتذكر أن القراءة هنا ليسـت سـوى وسيلة إرسـال واستقبال، وأي وسـيلة في الدنيا لا تكون غاية في ذاتها، وسـيحل غيرها محلهـا لأداء المهمة، وهذا مـا جعل المعري وطه حسـين ومـن قبلهما امرؤ القيـس يملكون ثقافة راقيـة مع فقدانهم لوسـيلة القـراءة وعدم تمكنهم منها، مما يعنـي أن القراءة هي مجرد صيغة من صيغ التفاعل وليسـت هي سر التفاعل ولا تصنع قيمته ولا تفترض خطورته في حال غيابها، والمسـألة ليست مسألة أفراد وعينات بشرية محصورة بل هي علامة ثقافية أكبر من أن ننساها أو نتناساها، فالآداب العظمى في التاريخ كله تحدرت وتناسلت عبر الرواية والمشافهة والحفـظ، مثلما تحدرت عـبر الورقة والمخطوطات، وليس هذا سـوى افتراض أولي ولكنه افتراض كاشف وبنيوي.

ولنـا أن نراجـع المصطلحات التالية: يسـمع / يقـرأ / يبصر. وهي مصطلحات ثقافية بعيدة العمق والرمزية، وكل واحد منها يمثل حالة مـن حالات التكويـن الحضاري البشري تاريخيـاً وواقعياً، حيث كلمة (يسـمع) تعبر عن الثقافة السـمعية والشفاهية، في حين (يقرأ) تمثل مرحلة الكتابـة والكتاب، وتتلوها (يبصر) التـي تمثل مرحلة الثقافة البصريـة ومرحلة زمن الصـورة، وهو زمننا الحـالي. وإن كنا نرى أن زمن الشـفاهية هو زمن قديـم فإن بعضاً منا سـيقول اليوم إن زمن الكتاب قد صار أو هو على مشـارف الاضمحلال، وإن كنت لا أقول ذلك فعلاً ولا أراه سيقع حقيقة، إلا أنني أرى أن القراءة ليست سوى صيغة

واحدة من صيغ ثلاث تمثل وسائل التثقيف والاستقبال، وكلها وسائل كـبرى ومفعوليتهـا عالية جداً ومتسـاوية المفعولية أيضـاً. ولن نجد صعوبـة في أن نقـول: إن الأذن تقرأ في حالة رجل مثل طه حسـين، وفي حالة أمة كاملة سلف بعض منها ويعيش من حولنا خلق كثير لما يزل كذلك، ومثله من يقرأ عبر الصورة حيث تكون الصورة كتاباً وقد نراها أهـم وأخطر من الكتاب. وهذا يجعلنا نعيـد تصورنا لمعنى القراءة ولا نحصره بالكتاب وقد رأينا اتساع مجاله وتعدد مفهومه ومفعوليته.

- 3 -

ما المقروء؟

لكـي نخط طريقنا لتصـور الافتراض حول هذه الأمة التـي تقرأ (أو لا تقرأ) يجب أن نستعرض الواقع العملي حول المادة المقروءة حسب التجارب المشاهدة، وهنا نستعرض أربع حالات لما نراه مادة مقروءة، وهـي:

أ - الكتاب الديني.

ب - التحليل الرياضي.

ج - المادة الفنية الغنائية والتمثيلية تحديداً.

د - كتب الغيبيات.

هـ - كتب الشعر الشعبي.

ويقابل ذلك سلباً كتب الفلسفة النظرية والكتب العلمية والأكاديمية وبعض صيغ الإبداع خاصة الإبداع الشعري الذي تراجع بصورة خطرة.

ونحــن إذا وضعنا هاتين المجموعتين أمام أعيننا فســنقول بوضوح قاطــع إن المجموعــة الأولى مقروءة وهــي منتشرة على شــاكلة كتب ورسائل ومنشورات صحفية، بل إن الصحف تتوسل بالرياضة والفن ومربعات التنجيم من أجل تنشيط المبيعات.

هذا يجعلنا نقول إن هناك نشــاطاً قرائياً في بعض الشؤون ويقابله ركود قرائي في شــؤون أخرى، وهنــا يتحتم تعديل الفرضية، لنوجهها نحو النوعية المقروءة بدلاً من كونها سؤالاً عاماً عن القراءة.

ولسوف نرى أن العرب يقرؤون ولكن السؤال هو عن نوعية المقروء، خاصــة إذا عرفنا أن كتاباً مثل كتاب (لاتحزن) لمؤلفه الشــيخ عايض القرنــي قــد باع أكثر مـن ثلاثة ملايين نســخة في فترة وجيــزة، وهي إحصائية شملت مصر واليمن والأردن ومنطقة الخليج العربي، بينما تقــف دواويــن أدونيس عند أعداد محدودة وضيقــة، والأمر هنا هو في خيارات ثقافية للجمهور، مما يجب أن يكون موضع سؤال وتفكر.

سنظل في هذه الورقة نقول إننا أمام سؤال عن نوعية المقروء ولسنا أمام سؤال عن القراءة بشكل مطلق.

ـ 4 ـ

ما العلاقة بين القراءة والثقافة؟

إن ســؤال العلاقة فيمــا بين القــراءة والثقافة هو ســؤال يمس المتغيرات المعرفية على مســتوى مــا يراه المجتمع ثقافــة وما يراه

ضروريـاً، ومـا هـو عكس ذلـك، ولا شـك أننـا مررنا بزمـن كان الشـعر فيه هو العلامـة الثقافية الأكبر، وكان مـن ديدن الخلفاء الأمويين والعباسـيين تربية أبنائهم على لغة الشعر وذائقة الشعر والأخلاقيـات الشـعرية، وكانـت ثقافـة الدواوين العليـا للخليفة وللوزراء والوجهاء هي الشـعر، استماعاً للمديح أو رواية للقديم، أو تطريبـاً بالشـعر -كما هي شـهادة كتاب الأغانـي-, وهذا عزز مكانـة الشـعر كعلامـة ثقافيـة، وورثنا نحـن هـذا المعنى حتى صـار المعهود الثقافي أن من يحفظ المعلقـات وحكم زهير والمتنبي والمعري، ثم أخيراً حفظ شـعر شوقي هو المثقف، وكان ذلك علامة ثقافيـة يحـرص مـن يملكها عـلى إظهارهـا كاسـتعراض ثقافي لافـت. غـير أن الأمر تغير الآن ولم تعد هذه السـمة علامة ثقافية, ويـنـدر أن تراها بين الجيل الشـاب، ولم يعد الشـعر علامة ثقافية مثلمـا كان من قبل. ومـع تراجع مقام الشـعر تراجعت مقامات ثقافيـة أخرى من مثـل النقد ونظرياته ومعها الأسـاليب البلاغية والخطابية، وتبعتها خطابات أخرى تماثلها في التكوين والتبويب، وهـذه كلها أصابها نوع من التراجع في التسـويق والشـيوع حتى وصلـت إلى مراحـل مخيفة في ضيق دوائرهـا. وفي مقابل ذلك حلت خطابـات أخرى لتكـون في صـدارة الاهتمام والاسـتهلاك اليومي السريع، وجاءت فكرة الأفضل مبيعاً كاسـتجابة لمتطلبات السوق الثقافية، ومن أهم شروطها السـهولة والمباشرة والصراحة، وكل

خطاب اجتماعي أو سياسي أو ديني ينطوي على شروط الصراحة والمباشرة والسهولة يجد صداه بسرعة فائقة، وسنرى أن هذه هي سمات ثقافة الصورة -كما سنحددها لاحقاً في هذه الورقة-, وهذه مسـألة تمس المتغيرات المعرفيـة والذوقية في حياة البشر وعلاقات التواصل في داخل المجتمعات وفيما بين الفئات.

لقـد تعزز بشـكل أو بآخر مفهـوم ثقافي عام وحديـث يفترض أن قـراءة الكتب هي العلامة الثقافية، بحيـث أن النقص فيها أو التقليل منها يصبح مؤشراً على ارتداد ثقافي، ولا شـك أن أصحاب المهنة كانوا وراء تغذية هـذا التصور، فالناشرون وباعة الكتـب ومعهم المؤلفون ظلـوا يرددون بلا هوادة القول بأن العرب أمـة لا تقرأ، وأن أمة اقرأ لا تقـرأ، وحدث في عام 1999 في معرض بيروت للكتاب أن وضعت إحدى دور النـشر العربيـة كفناً صغيراً على مدخل جناحهـا وقالت إنه كفن القارئ العربي ميتاً، وركزت تغطيات الصحافة على هذا المنظر وصار ندرة من نوادر الأقاويل.

إن الربـط بين القراءة والثقافة حتى لتكون هذه علامة على تلك لهو ربط قسري ويتجاهل حقائـق جوهرية حول مصادر الثقافة، وأولها الرواية الشفاهية التي كانت مصدراً تاريخياً شاملاً وكلياً وله مفعول جبـار في القديـم مثلما له مفعول حديث في زمن الإذاعات والمسـجلات والمرويات الصوتية. ثم جاء زمن الصورة وثقافة الصورة، كما سنحدد في الفقرة التالية.

ـ 5 ـ

الصورة كتاب

تحولت البشرية تحولاً كبيراً حينما اعتمدت الكتابة وسيلة للثقافة، وكانت الشفاهية هي الوسيلة المطلقة، وجاءت الكتابة لتحتل المركز الأول ثقافياً وتزيح الشفاهية إلى الهامش، وحدثت مرحلة وسط فيما بين الشفاهي والكتابي، وهي مرحلة التدوين حيث جرى رصد المنطوق وتحويله إلى مكتوب (مدون)، ثم انفتح الزمن للكتابة لتصبح الورقة والقلم محل اللسان والذاكرة، ومر زمن طويل تعودت فيه الثقافة على هذه الوضعية، حتى جاء زمن الفضائيات، وهو زمن ورث كل التحولات المرحلية في الإذاعة والسينما، ومرحلة التلفزيون الأولى، ومن هذه الوراثة جاءت ثقافة الصورة لتعلن تحولاً كبيراً آخر في حياة البشر، وهو التحول الثاني تاريخياً وحضارياً من بعد حدث الكتابة التي أزاحت الشفاهية. ولا شك أن ثقافة الصورة قد أعادت كثيراً من خصائص الشفاهية في المباشرة والسرعة والتفاعلية، وغيرت من أنظمة الاستقبال التي رسختها الكتابة، فالكتاب صامت ومطلق والمؤلف في الكتاب سلطة متعالية، بينما القارئ للكتاب سلبي وهو مجرد مستقبل سالب، وليس بينه وبين المؤلف صلة من أي نوع فهو لا يراه ولا يسمعه ولا يستطيع محاورته، ومعظم المؤلفين هم أموات أو بحكم الأموات من حيث غيابهم المطلق، والكلمة في الكتاب هي صورة

جامدة، وهذه مفارقة كبرى مع الشفاهية حيث إن الكلمة الشفاهية حيــة وقابلة للتبدل والتغير والتفاعل، ويكون المســتقبل فيها إيجابياً وفعالاً، مع اشــتراك لغة الجسد في صناعة الرسالة وصياغة التواصل، وفيما بين الشفاهية والكتابية تحولت الأنماط الثقافية ومالت لمصلحة الكتابة وقيم النص المكتوب، وتولد عن ذلك أعراف ونظم معرفية منها وجود الوســطاء بين المؤلــف والقارئ وهم النــاشرون والموزعون من جهــة، ومن جهة أخرى جاء وســطاء آخرون مــن الشراح والمفسرين والنقاد وعارضي الكتب، وهم فئات شكلت مهناً ثقافية كبرى على مر التاريخ.

وســط هذا كله جــاءت الصورة لتقــدم ثقافة مختلفــة تلغي فيها -أول ما تلغي- وظيفة الوســطاء، فالصــورة تأتي مباشرة ولا تحتاج إلى شــارح ولا مفــسر ولا مترجــم، ولكنهــا تكتفي بقيمهــا المباشرة، وهي قيم تفاعلية وحية وإيجابية، والمستقبل فيها يتفاعل عبر العين والأذن مبــاشرة وتلقائياً، وهي تعيد له موروثه الأنثروبولوجي القديم في المشافهة ولغة الجسد والتفاعلية.

هــذا أمر، ومعه أمر مصاحب وهو ظهور رســائل الجوال ورســائل الفضائيات، وشاشــات الإنترنت، وهي كلها صيغ ثقافية جديدة تتيح فرصاً خيالية للناس لكي يمارسوا أنواعاً متجددة من الوسائل المعرفية الرخيصــة أو حتى المجانية، مع مــا فيها من حرية مطلقة وسرعة في الاستقبال واختصار للوقت والجهد وتوفير للمال.

ومن المهم هنا أن نقول إن هذه صيغ ثقافية ومصادر للمعرفة تكشف أن القراءة التقليدية عبر الكتاب ليست هي المعيار على ثقافة مجتمع ما أو عدم ثقافته، وكما كانت الثقافة الشفاهية قادرة على خلق شاعر عبقري مثل امرئ القيس ولم يقصر به عجزه عن القراءة والكتابة، فإن ثقافة الصورة تستطيع أن تخلق أجيالاً مثقفة ثقافة عصرية، وهي ثقافة نوعية ومتطورة بكل تأكيد، وإن اختلفت بالضرورة عما هو متعارف عليه تقليدياً في تعريف المثقف. والصورة كتاب أيضاً مثلما هي مصدر ثقافي لا يقل ثراء عن الكتاب بمفهومه التقليدي، وهي لذلك من أهم مصادر التثقيف، ولن نشك بكونها مصدراً مهماً وفاعليته عالية جداً ولها من الأثر أضعاف ما للورقة المنقوشة بالكلمات الجامدة.

\- 6 -

المقارنة الثقافية

أشير هنا إلى عدد من التصورات الواهمة التي تعري حواراً كهذا الحوار حول سؤال القراءة عربياً، وهي كالتالي:

أ - تجري المقارنة مع الغرب عادة وتجري الإشارة إلى ظاهرة الكتب الأكثر مبيعاً في الغرب، وهذا أمر يتم من باب التبكيت على العرب حينما تجري مقارنة الأرقام، والحق أن ظاهرة الكتب الأكثر مبيعاً في الغرب

ليســت علامة على القراءة الجادة، ولكنها علامة على المكاســب المادية وعلى الاســتهلاك السطحي للكتاب، وتلك النوعية من الكتب هي كتب ســاذجة وبســيطة وليســت كتباً في المعرفة ولا في الثقافة العليا ولا في الثقافــة الجادة، وهي إلى الاســتهلاك وصناديــق النفايات أسرع منها إلى العقــول وكثــيراً ما يترك الناس هــذا النوع من الكتــب على كراسي الانتظــار في المطارات وعلى مقاعد الطائرات والقطارات للتخلص منها بعد التســلي بها لســاعات، وهي كتــب تباع عادة في أكشــاك المطارات ومحطات الســفر بعامة، وتصاحب الجرائــد اليومية في مواقع بيعها، أي أنهــا كتب يوميــة كالجرائد اليوميــة، ولغتها ومســتواها هي لغة الصحافة ومســتوى الصحافة، وهذه مســألة لابد من الأخذ بها وقت المقارنة، لكيلا نخلط بين الجاد والبسيط.

ب – حينمــا نقــارن بين العــرب والغربيين في مســألة الكتب، فلا بد أن نســتذكر وضع وحالــة الكتب المســماة بالأكثر مبيعــاً, وهي التي تكون عادة في رأس المقارنة, وكذا لا بد أن نســتذكر الحال الاجتماعية الغربيــة، وهي حال انفرادية، والفرد هناك هو كون قائم بذاته، ويندر التفاعــل الاجتماعي المباشر بين البــشر، وإذا ركب المرء في طائرة أو في قطار وحافلة فإن الصمت يعم بين الركاب ويندر أن يدخل راكب وآخر في محادثــة تقطع عليهما مشــوار الســفر، ولهذا يلجــأ الناس للكتب البســيطة والمســلية لتزجية وقتهم كبديل عن المحادثة، وهذا ما صنع موضــة الكتب الأكثر مبيعاً، بينما الطبع الشرقي هو تزجية الوقت في

الأحاديث بين الناس المتعارفين وغير المتعارفين، وإذا جمع الناس عندنا مكان نشـأت بينهم لغة في التخاطب والتواصـل مباشرة، وهذه حالة تمييز بـين مجتمع وآخر فرضـت عند الغربيـين شراء الكتب الميسرة لقيـام أسـبابها الاجتماعيـة والحياتيـة، بينما لم تنشـأ عندنا نفس الأسـباب، فاختلفت الحالة هنا عن هناك، وليسـت المسـألة مربوطة بحـب الكتب وحـب الثقافة، وليس في نوعية الأكثـر مبيعاً ثقافة ذات شأن، وهي -فحسب- ضرورة اجتماعية.

وفي المقابـل فإن التخاطب بين البشر هـو ضرب من ضروب التبادل الثقافي والمعلوماتي مثلما هو إمتاع وتسلية وتزجية وقت، وهو عندنا مـن نتائج التفاعل البشري بينما يطلبها الأوروبيون عبر الكتاب إذ لم تتيسر لهم عبر البشر.

ج - لا شـك أننا نضج بالشكوى من تراجع مقام الشعر بين الناس، والأمة الشـاعرة لم تعد تعير الشـعر مكانة عليا كما كانت في سـابق أزمنتهـا كلهـا، وهذه ظاهرة لا تخصنا وحدنـا، ولقد جرى قبل بضع سـنوات أن قامت جامعة أكسـفورد بإلغاء كافة عقـود النشر المتفق عليها سـلفاً مع عدد من الشعراء الإنجليز وتحملت الجامعة غرامات الإلغـاء، وذلـك لأن دار النشر الجامعيـة الخاصـة بالجامعة لاحظت عزوف القراء عن الشـعر مما حول المنشـورات الشعرية إلى مكدسات في مسـتودعات الجامعة، وكانت الخسائر هنا كبيرة مع فقدان الدور الطليعي للجامعة في نشرها لأعمال لا تسـويق لها، وهذه قصة كبيرة

ومشـــهورة تكشـــف عن التغير الثقافي الهائل وعن مبلغ خطورته مما أدى بالجامعـــة إلى تصرف جريء كهذا. ونحـــن هنا نقول ذلك للتعرف عـــلى الوضـــع الكوني بعامة كيلا نظن بأنفســـنا وثقافتنـــا ظنوناً غير واقعية ونكون مهولين أكثر منا باحثين وملاحظين.

ـ 7 ـ

التفاعل الثقافي

مـــن الملاحظ ثقافياً أن الناس قد تجاوبوا مع ثقافة الصورة بصيغة عريضـــة وسريعة ومغريـــة، وهذا مؤشر على ما تضمـــره النفوس من مخزون أنثروبولوجي للحس الشفاهي لدى البشر، وكأن البشر كائنات شـــفاهية أكثر منهـــا أي شيء آخر، وهذا ما يجعلنـــا نأخذ بعين النظر ما كان الناس يمارســـونه وقت ســـيطرة الكتاب حينما كان الوســـيلة الأهم في تداول المعرفة، وكانت الممارســـات تجري دوماً لتحويل الكتاب إلى مـــادة صوتية، عبر تحويل الروايات إلى مسرحيات ممثلة، وإلى أفلام مصورة، وعبر الأمســـيات الشعرية والمحاضرات والندوات والنقاشات حول الكتب، وكان الناس يكتشفون فروقاً جذرية في فهمهم للمكتوب حينما يتحول إلى منطـــوق أو مصور، ولقد كان هذا مؤشراً إلى العلاقة الذهنيـــة بين البشر والصوت، وبين البـــشر والصورة الحية، وكون هذا أكثـــر مدعاة للفهم والتفاعل. ولـــذا فإن الصورة المتلفزة حينما جاءت

لتعم الكون الاستقبالي لاقت استجابة سريعة وتفاعلية معها حتى صار ذلك بمثابة العودة إلى الأصل الثقافي البشري، وتحول التواصل بين الناس ومصادر الثقافة ليأخذ هذه الصيغة الحديثة للشفاهية، وهذا تطور يجري ضد مصلحة الكتاب.

وإن كنا نقول بهذا فإننا نعززه بالقول إن ثقافة الكتابة لكي تحافظ على قدراتها التنافسية لابد لها أن تتمثل خصائص ثقافة الصورة، وهي خصائص واضحة المعالم، ومنها المباشرة والسرعة والتلوين والدقة والإثارة، وهي سمات تفاعلية نجحت مع النصوص التي تنطوي على هذه الصفات أو بعضها، ولقد كنا نشهد كيف أن محمود درويش يستقطب حضوراً كاملاً في كل مرة كان يلقي فيها أمسية شعرية، وذلك لما في خطابه من خصائص تشبه سمات وخصائص الصورة، وسنقول شيئاً من هذا عن أمسيات الشعر الشعبي، والاحتفاليات الثقافية، والروايات، وهي صور ثقافية متحركة، عرفها ما يسمى بالوعاظ الجدد واستثمروها بمهارة جاذبة، وهذه كلها أمثلة واقعية تكشف أن ثقافة الصورة تحفز الاستقبال لأنها تحفر باتجاه رغبات قديمة مخبوءة داخل النفس البشرية في حنين الذات باتجاهها إلى الجذر الإنساني العميق في المشافهة والمحادثة والتفاعل الحي ومباشرة الفعل، مما يفرض علينا التفكير بصدق عن مصادر المعرفة ونوعية المعرفة، وكيفية توصيلها، وليس للكتاب إلا أن يلعب لعبة التغشيش، فيسترق النظر للصورة ويحاول أن يحاكي بعض

خصائصها لكي يبقى على موقعه بين الناس. وليس بالصعب أن نتذكر أن أمسيات محمود درويش تحظى بحضور جماهيري كبير معظمه ليس من أهل التخصص الشعري الحداثي، ولو كانوا كذلك لرأيناهم مثلاً عند أدونيس، والذي يمكن أن نقوله هنا هو أن نصوص درويش ترتبط ارتباطاً عضوياً بالصورة الحية للحال الإنسانية الفلسطينية، وهي صورة تحضر فيه ومن حوله حتى صار يجسدها حتى في نصه الذاتي والغزلي، ويحيط به وبشعره هذا الحس الحيوي المتفاعل عقلياً وعاطفياً حتى ليكون صورة متحركة وفعالة في النص وفي الناس.

وسنرى أيضاً مثالاً آخر مع الشعر الشعبي الذي يستقطب جماهير عريضة ليس لنا أن نحصرها بالثقافة الفصيحة، وهذا الشعر ينهل من اليومي ومن الصورة المغناة والأرشيف الأسطوري للذاكرة الشعبية، وهو ذو تركيبة شفاهية وصوتية تقوم على التفاعل والحركات التمثيلية ولغة الجسد وتستحضر الشارع اليومي والمباشر بصورة تلقائية.

وهذا يفضي بنا إلى وضع تصوراتنا مرة أخرى نحو الثلاثية الاصطلاحية: (يسمع) (يقرأ) (يبصر)، وما تحمله كل واحدة منها من بعد ثقافي وحضاري وتحولات مرحلية كبيرة وعميقة الدلالة، حيث تتولى البشرية تبديل علاقاتها مع ذاتها ومع محيطها حسب الوسيلة الثقافية المستخدمة، مما يشكل تنويعاً في المصادر الثقافية. ولسوف أقف وقفات على عدد من الكتب التي حققت مبيعات عالية بمثال

عربـي ومثالين أمريكيين للتعرف على خصائـص ظاهرة الأكثر مبيعاً وأبعادها، وذلك في مقالات تأتي بعد إجازة الحج -إن شاء الله-، وفيما بين ذلك سأقدم مقالتين تخصان أمور الكتاب والاستقبال الثقافي.

اقرأ / الكتاب

القيمة الرمزية للثقافة العربية

* الكلمة التدشينية للقاء الثقافي الذي نظمته جامعة أكسفورد بالاتفاق مع جائزة الشيخ زايد للكتاب، والمنقول هنا هو الترجمة العربية للكلمة الافتتاحية لذلك اللقاء في يوم الخميس الخامس من نوفمبر 2009.

* أيتها السيدات والسادة، طاب مساؤكم، شكراً لجائزة الشيخ زايد للكتاب التي جمعتنا في هذا اللقاء، وشكراً لكم في جامعة أكسفورد على الترحاب الكريم، وأنا أمامكم تربطني بهذه الجامعة قصة طريفة، فقد جئت إلى الجامعة عام 1972 لإجراء مقابلة بعد أن تقدمت بطلب لإكمال دراستي العليا هنا، وحينما دخلت إلى المكتب اكتشفت أنني أمام البروفيسور مصطفى بدوي، وكنت أعرف عنه الكثير لكنني أقابله لأول مرة، وبعد ساعة من التحدث أظهر لي ترحيبه بي لأكون أحد تلامذته، وكان ذلك موقفاً كريماً منه ولا شك، غير أنني حينما خرجت من المكتب انتابني شعور حزين إذ تصورت نفسي طالباً عربياً مع أستاذ عربي، وعن موضوع عربي، وهالني أن أرى حالي وقد قطعت نصف الكرة الأرضية لأنتهي هذه النهاية، لقد كنت مفعماً بالتصورات حينها عن المستشرقين والاستشراق، وكنت أريد حقاً أن أعيش حالة

علميـة أحتك فيها مباشرة مع هؤلاء، ولم أسـتظرف فكرة أن يشرف عـلي رجل عربي وهذا ما جعلني أغير وجهتـي وأذهب إلى أدنبره ثم إلى إكستر حيث درست على يد مستشرق هولندي هو البروفيسور جوتيه ينبول. على أنني أشـير الليلة إلى الدكتور بدوي الذي ارتبط اسمه بهذه الجامعة، وأقول إنه أستاذ عظيم وعالم جليل وقد توطدت علاقتي معه كثـيراً، وله في نفـسي مقام رفيع، وما قصتي هذه إلا مسـألة خيارات وليست مسألة تمييز.

هاأنذا أعود إلى أكسفورد بعد سبع وثلاثين سنة، بترتيب كريم منكم ومن جائزة الشـيخ زايد، ويفترض بـي أن أتحدث عن الثقافة العربية لمدة لا تزيد عن عشر دقائق إلى ربع ساعة، وهي مهمة صعبة أن أختزل تاريخـاً عظيماً في هذه الدقائـق, وقد قررت أن ألتقط بعض جمل ذات بعد رمزي لكي أستخلص منها صورة عن الأبعاد الكلية لهذه الثقافة.

- 1 -

هنـاك علامات أولية يأخذها العرب مأخذ فخر بما إنها تدل على قيم ثقافية ذات مفعولية عالية، وأولها هو نزول الوحي على الرسول محمد -صلى الله عليه وسـلم- تحت مسـمى (الكتاب)، فالذي جاءه من ربه هو ما صار يسمى بكتاب الله، وهو وصف القرآن لنفسه وهي الصفة الملازمة له، ثم إن أول كلمة نزلت في هذا الكتاب هي كلمة (اقرأ).

هنا تأتي الكلمتـان (الكتاب واقرأ) لتكونا علامتين رمزيتين عاليتي

القيمـة، وقـد صنع هذا عالماً راقيـاً من الخيال الثقـافي ومن التصرف العملي، ولذا صرنا نقرأ حكايات كثيرة تستند إلى هذين المعنيين، الكتاب والقراءة، حتى صارت جملة (اقرأ الكتاب) جملة ثقافية تحمل تصوراً معرفياً به نقرأ الواقعـة الثقافية العربية في لحظات تكوينها وفي أوج ازدهارها، وحينما وقع عدد من الأسرى من غير المسلمين في يد جيش المسـلمين كان اقتراح الرسـول عليهم للحصول على فك أسرهم هو أن يعلموا عدداً من المسـلمين القراءة والكتابة، وهـذا تطبيق أولي وعملي للمعنـى الرمزي للكلمتين الحاملتين للرمزيات الأولى، ومثل ذلك ظهور عدد من المسـلمين الأوائـل بصفتهم كتاب الوحي. وهـي صفة عالية الرمزيـة ومن تحققت له صارت علامة تلحق سـيرته وتميز تاريخه، ومسألة تحرير الأسرى ثم اختيار رجال لكتابة الوحي هما أول تطبيق عملي لجملة: اقرأ والكتاب، أو: اقرأ الكتاب.

ـ 2 ـ

كان ذلك في مطلع التأسيس الثقافي العربي بصيغته الإسلامية المبكرة، وهـو ما صرنا نشـهد تحقيقه عملياً وثقافيـاً في العصر الأموي ثم في العـصر العباسي، أي في فترة القرون الثلاثـة الأولى للتاريخ العربي، أي القرن السـابع وما بعده، حيث نشط الفعل الثقـافي بعد استقرار الدولة العربية وجاءت الترجمة بشـكل مكثف وبدعم من الحكام والوجهاء، وجاء التأليف في كافة العلوم الأدبية والعلمية والدينية، وظهرت طبقة

المثقفين والمترجمين والمؤلفين والشعراء والرواة، واتسعت الدائرة بطلب وبدعم من السلطة الحاكمة، وكان من ديدن السلاطين انتقاء أفضل المثقفين لتعليم أبنائهم من أطفال القصور، وتهيئة هؤلاء الأبناء للحكم معتمدين على ثقافتهم ومعرفتهم، وهذا أمر يتم تحت تأثير المعنى الرمزي الأول حول مفهوم (الكتاب واقرأ)، أي أنه تصور عملي للجملة الثقافية: اقرأ الكتاب.

ـ 3 ـ

تشهد الكتب التي بين أيدينا الآن من مثل (كتاب الأغاني) على الدرجة العالية من المزيج الثقافي المتوفر في المجتمع العربي حين ذاك، ونحن هنا نتكلم عن القرن السابع حتى التاسع، وهي قرون ثلاثة شهدت ظهور العرب كقوة سياسية وكقوة ثقافية وكقوة حضارية، و(كتاب الأغاني) يتكون من عشرين مجلداً، وكتبه صاحبه في الأصل ليسجل مئة لحن غنائي، وهي الألحان التي اختارها من بين المئات ليكتب عبرها تاريخ الغناء وثقافة الغناء في عصره، ولكنه لم يكتفِ بذلك، وقد أحس أن الثقافة كل لا يتجزأ، فالغناء يقوم على ألحان موسيقية وعلى أصوات بشرية، ومع كل أغنية هناك نص شعري وهناك جمهور مستمع وهناك تاريخ لهذا اللحن ولهذا النص ولهؤلاء البشر، ولهذا راح الأصفهاني (مؤلف الكتاب) ليدخل ويدخلنا معه في

رحلة طويلة وعميقة عبر التاريخ القديم ومع التاريخ الحاضر أمامه ليكتب عن المجتمع في مدينة بغداد بكل أطيافه، وجاءت حكايات كتاب الأغاني لتكون حكايات ثقافية تجمع بين الشعر والغناء والقصص الاجتماعية والممارسات العلنية والشخصية للناس بكل فئاتهم بدءاً من السلاطين إلى المطربين والمطربات رجالاً ونساء وصغاراً وكباراً، وظل هذا الكتاب سجلاً اجتماعياً وثقافياً يكشف عن التنوع الثقافي والاجتماعي ويكشف ذوق المجتمع ومستواه الحضاري مثلما يكشف عن منزلة الكتاب في الوسط الاجتماعي، مما جعل فئة تنشأ بوصفهم فئة المؤلفين ونخبة المثقفين والانتماء إلى هذه الفئة يرفع من مقام المرء ويعزز منزلته الاجتماعية.

- 4 -

ومن قبل كتاب الأغاني كانت المقولة العربية التقليدية بأن (الشعر ديوان العرب)، وهي مقولة تشير إلى مرحلة ما قبل الإسلام حيث كانت الأمية هي السائدة، ولم يكن في مكة سوى نفر قليل يجيدون القراءة والكتابة، وقد أحصاهم أحد المؤرخين بما لا يزيد عن عشرين رجلاً، وذلك في مدينة مثل مكة المكرمة، وكانت صفتها في ذلك الوقت القرية أو أم القرى، وذلك في القرن السادس، ولعل عدد سكانها لا يزيد عن أربعة آلاف نسمة، كلهم أميون ما عدا عشرين منهم -حسب

البلاذري- وهم عينة على سائر القرى العربية في وسط شبه الجزيرة العربية، ولكن الحال تختلف في ممالك الجنوب وممالك الشمال حيث تشير الحفريات الآثارية إلى أن المجتمع العربي هناك يعرف الكتابة بصورة واسعة، وبعضها يشير إلى نصوص ظهرت قبل الميلاد بألفي سنة، وتشير إلى مجتمع يكتب ويقرأ بكل فئاته نساء وأطفالاً إضافة إلى لغة الأدب والتجارة ولغة الطقوس الدينية، كما كان عرب مكة المكرمة يعلقون نصوصهم الشعرية مكتوبة على ألواح كبيرة تستند على جدران الكعبة.

ولكننا مع هذا نلاحظ أن السمة الغالبة هي هيمنة الشعر المروي والمنطوق شفاهياً مما يعزز شفاهية الثقافة، وهذا ما يجعل الشعر هو الأرشيف المسجل لكل ما هو قيمة ثقافية عربية، مما وضع الشعر في موضع رفيع عند العرب، وظلت كلمات من مثل (العرب أمة شاعرة) هي واحدة من أهم ما يصف به العرب أنفسهم، ولقد بلغ الشعر منزلة ثقافية عالية الرمزية حتى إن ابن عباس، وهو ابن عم الرسول -صلى الله عليه وسلم- نصح مفسري القرآن الكريم بالعودة إلى الشعر العربي للاستعانة به لفك دلالات معاني الكلمات القرآنية. وظل الشعراء في حظوة متقدمة عند السلاطين, ولذا كان من أهم أهداف الحركة التأليفية في العصر العباسي في القرن السابع هو جمع الشعر القديم ورصده في كتب وظهرت طبقة من المدونين اشتهرت بهذا العمل وتخصصت فيه ولا تزال الكتب المجموعة في تلك الفترة قائمة بيننا

الآن، وهي مراجع ثقافية معتمدة وبالغة الأهمية، وهي بحق سجل ثقافي وأرشيف حضاري وذوقي أيضاً، وتخرجت على صفحاتها أجيال من الشعراء على مدى التاريخ حتى يومنا هذا.

- 5 -

يحتل الشعر مكانة عالية في الثقافة العربية حتى إنه ليطبع الشخصية العربية ذاتها, وإذا قبلنا المقولة القديمة في أن الشعر ديوان العرب، أي سجلهم الثقافي فإنه أيضاً يمثل المرجعية الذهنية للشخصية العربية، فمن المتصور العام أن كل رجل وامرأة من العرب لا بد وأن يمر في عمره بمرحلة من كتابة الشعر، وهكذا بدأ ويبدأ كل كاتب حتى طه حسين ونجيب محفوظ، وهما اللذان جربا قول الشعر، ثم اكتشفا طرقاً أخرى لهما، وهي ظاهرة عامة وشاملة، حتى إنك لتجد الخطب السياسية وكتابات الدواوين وقد طغى عليها الشعر، وذلك ملموس في خطب الخلفاء مثلما هو ملموس في خطب الزعماء العرب المعاصرين وفي لغة الأحزاب مثلهم مثل الكتاب، بل إننا قد نقرأ السلوك العام على أنه تجسيد شعري.

وفي مقابل ذلك كانت الثقافة العربية تزخر بالخطابات السردية، ولكن السرد -مع كثرته وشيوعه- ظل في مقام ثانوي مقارنة بالشعر، ولقد كانوا يقولون عن (ألف ليلة وليلة) إنه كتاب لا يصلح إلا للنساء

والأطفال وصغار العقول، وظل هذا الكتاب خارج المتن الثقافي وفي إطار الشفاهي، ولقد تنقل في أزمنته الأولى بين البلدان والألسنة دون اهتمام بضبطه وتدوينه، وحينما تم تدوينه جاء غفلاً من كاتبه أو كاتبته، ولم ينتسب النص لاسم معين، تحقيراً له وتقليلاً من شأنه، في حين أن الشعر قد دخل لمرحلة التدوين مبكراً، وكانت أسماء المدونين تتوج أغلفة الكتب، وكانت مهنة التدوين الشعري مهنة نبيلة، وأسماء المدونين تبرز في مقدمة الأسماء الثقافية في التاريخ العربي، وكان الشعراء يهتمون بأمر كتابة شعرهم وشرح قصائدهم وتسويقها عبر الرواة، ويستعينون بأكابر الأدباء واللغويين لأداء هذه المهمة كما كان يفعل المتنبي ومن قبله من كبار الشعراء، وهي مزية يختص بها الشعر دون السرد، والأخير ظل محتقراً، وظلوا ينظرون إليه على أنه خطاب مؤنث بينما الشعر هو خطاب الأكابر من الرجال وعلية القوم، ولا شك أن نصوصاً سردية كثيرة وعظيمة قد ضاعت علينا بسبب عدم اكتراث المثقفين في تدوينها، والأمة التي دونت تراثها كله بما في ذلك معارف الأوائل في أنساب القبائل وأخبارها وجغرافية الأرض والأماكن وكذلك علم الفراسة والفلك والنجوم، وقصص الشعراء والأمراء وخطب البلغاء؛ هذه الأمة نفسها وهي أمة (اقرأ الكتاب) لم تعر اهتماماً لتدوين السرد، وإذا جرى تدوين السرد فإنه يجري على استحياء، ونحن لا نعرف الذي قام بتدوين سيرة عنترة ولا أبي زيد الهلالي، مثلما لا نعرف من روى وسجل كتاب ألف ليلة وليلة.

لقـد احتجنا إلى بضعة قرون لكي نعيد للسرد قيمته ونمنحه موقعاً ثقافيـاً محترماً، وذلك مـع ظهور فن الرواية الحديث، وبروز أسـماء الروائيـين، وهـذا أثـر على الموقـف من القصـص والحكايـات، فجاء مثقفون وصـاروا يجمعون الحكايات من أفـواه الناس ويكتبونها في كتب تحمل أسـماء المدونين ولم يعد ذلك عيباً يتسترون عليه، ولم تعد تلك النصوص خاصـة بصغار العقول والأطفال، بـل صارت نصوصاً تقرأ بالعلن وتحتل مقاماً عالياً.

وربما يكون الزمن قد دارت دورته ضد الشعر، إذ الواضح الآن أن السرد، والرواية بخاصة، قد صارت تستأثر باهتمام القراء أكثر من الشعر، وبدأت منزلة الشعر تتراجع في مقابل ظهور ثقافة الصورة من جهة وجماهيرية الروايـة من جهة ثانية، والتيار يتجه ضـد الخطاب البلاغي عموماً وعلى رأسـه الخطاب الشعري، وتحتل الصورة والعالم الرقمي موقعاً أعلى من أي خطـاب ثقـافي آخر، والأمة الشـاعرة لم تعد تجـد في أجيالها من يعير اهتماماً كبيراً للشعر، وإذا كان الخلفاء قديماً يرسلون أبناءهم إلى البادية العربية لتعلم لغة الأعراب وأشعارهم فإن شباب هذا الزمن ربما يجهلون حتى مجرد أسماء الشعراء فما بالك بحفظ نصوصهم.

ـ 6 ـ

لـئن كانت الثقافـة العربية تقوم عـلى مقولة: اقرأ الكتـاب، وتمثل

لهـا هذه المقولة قيمـة رمزية عاليـة ثقافياً, وينبنـي الخيال العربي على هذا التعبير؛ فإن جائزة الشـيخ زايد قد تأسسـت على هذا المعنى، وهي جائزة عن الكتاب وللكتاب، وهدفها تشـجيع التأليف والاحتفال بالإبداع والتأليف الابتكاري، وهي هنا تسـير في مسـار التصور الثقافي الأصلي لرمزيات الثقافة وتفاعليتها.

الفصل الثاني

رأسمالية الثقافة: الأكثر مبيعاً

لا تحزن (ثقافة الاستشفاء)

ـ 1 ـ

في منتصف عام 2005 وجدت نفسي أنطلق نحو مكتبة العبيكان لأشتري كتاب (لاتحزن) للشيخ عايض القرني، هناك وجدت الطبعة التاسعة عشرة من الكتاب، وقد كتب الناشر على الغلاف أنه باع أكثر من مليون نسخة، ولم يفت وقت حتى رأيت الناشر للكتاب يضع إعلانا كبيراً في جريدة الرياض (5/2 /2006) يهنئ فيه الشيخ على حصوله على جائزة (المؤلف العربي الأول)، ويشير إلى أن كتاب لاتحزن قد حقق مبيعات وصلت إلى مليون ونصف نسخة، ثم حصل أن تقابلت مع الناشر في معرض أبو ظبي للكتاب بعد شهور، وسألته عن حال الكتاب فقال لي إنه تجاوز ثلاثة ملايين نسخة وأن مبيعاته في مصر واليمن وبلدان المغرب العربي لا تقل عنها في المملكة والخليج.

كل هذا وقد كنت من قبل قد أثرت سؤالاً عن هذا الكتاب طرحته على طلبتي في الجامعة، وقد جاءتني الإجابات معبرة جداً، فمن مجموعة طلاب عددهم اثنان وخمسون طالباً وجدت أن خمسة وثلاثين منهم قد سمعوا عن الكتاب أما من سمع وقرأ فكانوا ثلاثة وعشرين، على أن القراءة تراوحت بين كامل الكتاب وبعضه أو تصفحه، وتبعاً لذلك استعنت بأستاذتين فاضلتين كانتا تدرسان عندي في مرحلة الدكتوراه، وهما أمينة المسهر وأمل الخياط التميمي، ولقد تولتا مشكورتين رصد

وضع الطالبات مع الكتاب، ولقد اكتشفت أن أمل قد سبق لها أن طرحت سؤالاً على طالبات كلية البنات بالدمام ووجدت أن سبعين طالبة قد سمعن بالكتاب، ومن بينهن خمسون قرأن الكتاب مابين كامل أو أجزاء منه، والرقم مستخلص من فصل عدة طالباته ثمانون طالبة، أما أمينة فقد وجدت أن ثمانية وأربعين بنتاً قد سمعن بالكتاب ولكن اللواتي قرأن كن ست عشرة بنتاً فقط، وذلك من فصل عداده ستاً وستين، وكذا كانت النتيجة مع ابنتي غادة التي وجهت سؤالها إلى فصل في كلية اللغات في جامعة الإمام وكانت النتيجة أن خمساً وثلاثين بنتاً من بين ثمانية وثلاثين سمعن بالكتاب، واللواتي قرأن لم يزدن عن أربع عشرة طالبة.

هذه إحصاءات لا شك أنها ستكون كبيرة جداً إذا قارناها بما يمكن أن نجده عند الطلاب والطالبات من إجابات فيما لو سألناهم عن مؤلفين آخرين، وأعطي مثالاً واحداً يمكن أن يدل على غيره، وهو أنني في العام الفائت وبعد أن دخلت على طلبتي في مادة (الأسلوبية) في الفصل الأول من العام 2008 وجدت طالباً يلحق بي بعد المحاضرة ليسألني عن اسمي، وقد لاحظت أن الطالب لا يعرفني ولا يعرف شيئاً عني، هذا بعد مرور خمس محاضرات لي معه ومرور اثنتين وثلاثين سنة في التدريس الجامعي، وسنتي تلك كانت هي السنة الأخيرة لي قبل التقاعد عند سن الخامسة والستين، والطالب كان في سنته الجامعية الأخيرة أي أنه قد أمضى قرابة أربع سنوات في الجامعة وفي قسم اللغة العربية تحديداً، وهذا يعطي مؤشراً عن حال جيل الشباب الذين تحدث عندهم تحولات نوعية بالغة فيما يهمهم وما لا يهمهم.

تلــك تحــولات ثقافية لا بــد من التنبه لهــا، ولقد مرت عــلي اثنتان وثلاثون سنة في التعليم الجامعي عندنا رأيت فيها التغيرات تجري أمام عينــي وفي قاعة الفصل في جدة والرياض، وتشــكل هــذه عندي قراءة للمجتمــع وتحولاته على ثلاثة عقــود، ربما وقفــت عندها في مقالات لاحقة -إن شــاء اللــه- ولكنني هنا أحصر القــول في كتاب (لاتحـزن) وأستدرك القول كيلا يلتبس الأمر وأنبه إلى أن ما جرى من الطالب عن عدم معرفته باسمي لا يقوم عندي كدليل على جهل هذا الطالب، وإنما هو دليل كاشــف عن تغيرات كبرى في الاهتمــام ونوعية المتابعة، فهذا الطالب الذي لا يعرفني لا بد أنه وبشكل أكيد يعرف أسماء وشخصيات أخرى ممن تدخل ضمن دوائر اهتمامه، وهي ليســت علامة جهل ولا علامة عقوق ولكنها -فحسب- علامة تساعد الباحث على التعرف على حقيقــة المتغيرات وعلى الواقع الاجتماعي والثقافي للجيل الشــاب وما يمــس توجهاته. وحينما قلت قصة هذا الطالب لأحد زملائي وبدا منه الامتعاض لم أجد ما أقوله له سوى: لاتحزن، قلتها وأنا ابتسم وكأنني أمــام نكتة، ولكن الحــال كانت أنني كنت أتفهــم الوضع ولا أحزن له وإنما أجعله مدخلاً للسؤال والمقارنة.

\- 2 -

شــيوع كتاب (لاتحـزن) وانتشاره يقوم كمؤشر ثقافي لافت للواقعة

الاجتماعيــة، وهـــي تتداخل مع الحال الثقافية لظاهــرة الكتب الأكثر مبيعاً، مما صار له مكانة كبيرة في أمريكا أولاً ثم في أوربا تأثراً ومتابعة بعد ذلك، وكتاب (لاتحزن) قد ســجل موقعاً متقدماً في قائمة الأفضل مبيعــاً عندنــا، ولا بد أن نتنبه -أول ما نتنبــه- إلى أن الكتاب لم يحضَ بمتابعة ولا ضجيج إعلامي لا وقت صدوره ولا فيما تلا ذلك من سنين، وهو قد سار بين الناس مسرى النار في الهشيم من دون ترويج إعلامي، مما يجعلنا نستبعد العامل الإعلامي، ولكننا لن نغفل عن كون المؤلف ذاته يحظى بصيت إعلامي لا بد أن له دوراً في التحفيز باتجاه الكتاب، غير أن هذا لا يقوم كســبب رئيس أيضاً، وذلك أن للمؤلف نفســه كتباً أخــرى كثيرة لم تبلــغ مبلغ هذا الكتــاب من الشــيوع والقبول، وهذا يدفــع بنا إلى البحث عن عوامــل أخرى غير عامل المؤلف، وهذا ما كنت أبحث عنه في قاعة الفصل مع طلابي حيث ظللت أسألهم عن الكتاب، وكانت الإجابات تدور حول ظاهرة (الحزن) وأنها ظاهرة قال عدد من الطلاب إنها كثيرة ومنتشرة بين الجيل الشــاب أولاداً وبناتاً، ولم يخفِ الطلاب إحساسهم بأنهم قد اشتروا الكتاب بسبب عنوانه وبدافع من حاجتهم لمواجهة أحزانهم.

لقد كنت ألف وأدور بشكل حاولت أن يكون تلقائياً وعلمياً وأن أبعد عنه الذاتيــة والمباشرة والإلحاحية لكي أســتخلص الرؤية منهم دون إيحــاء أو توجيه، ومــع مداومة التحدث بأريحية مطلقة وبما يشــبه العفوية توالت الإجابات مــع دورانها حول هذه النقطة بالذات، وهي

انتشــار الأحــزان وتمكنها من نفوس الشـباب، مع عدم وجود سـبل لتبديد هذه الأحزان.

هـذا مـا جعلني أرى أن الشـيخ عايـض قد اكتشـف هدفه بحدس ثقافي تصادف مع لحظته الصحيحة حيث لمس جرحاً اجتماعياً كامناً ولكنـه منتشر وعميق، هذا من جهة، ثـم إن الأمر وقد تبين أنه كذلك، لم يعد أمراً ثقافياً، وليس له شأن بمسألة القراءة والثقافة بما أنهما مظهـران ثقافيـان، ولكن المسـألة تتعلق بالحاجة النفسـية، والذين يأخذون الكتاب لا يأخذونه للتثقف ولا للتعلم أو السـياحة بين الحكم والأمثال والقصص، مما يملأ الكتاب، ولكنهم استقبلوا الكتاب بوصفه كبسولة علاج، ولم تكن المكتبة البائعة للكتاب إلا بمثابة الصيدلية.

لقـد جاءتني شـواهد كثيرة عن أنـاس قرؤوا الكتاب وليسـوا ممن تعنيهم قراءة الكتب أصلاً، وكذلك جاءتني قصص عن أسـماء لأناس مـن عليـة المجتمع قرؤوا الكتاب وشـكروا المؤلف عليـه وزادوه دعاء وأظهروا امتنانهم منه، وقد أشاروا أنه ساعدهم في مواجهة أحزانهم، وكل هـذا -مع ما وجدته من الطلاب- يعـزز الفكرة بأن رواج الكتاب كان دافعه الاستشـفاء وليس التثقف. ويصح هنا أن نقول إننا لسـنا أمـام ثلاثة ملايين قـارئ، ولكننا أمام ثلاثة ملايـين حزين. وهذه هي الحقيقة التي استخلصتها من استطلاعاتي.

يدخل الكتاب تحت مظلة الكتب الأكثر مبيعاً، وهذا مصطلح يشـير عـادة إلى نوع مـن الكتب تلامس الهـم الاجتماعي العـام، وهي عادة

مــن الكتــب الســهلة في موضوعاتها وفي أســلوبها، ويغلــب عليها أن تكــون لمؤلفين لهم صيت اجتماعي كبــير، وفي الغرب يكون هؤلاء من الإعلاميــين المقربين مــن دوائر القرار، أو من الفنانين أو من الساســة الســابقين، أو من علماء النفس الذين يتعاطون مع المشاكل النفسية والاجتماعية الشائعة، وتأتي الكتب في هذه الحالات لتكون كتب كشف أسرار أو كتــب معالجــة للحــالات، وتكون كتب فضائــح أحياناً، ولها كلها سمات وخصائص ثقافية أرجئ التفصيل فيها للمقالة القادمة حين أقف على ظاهرة الكتب الأكثر رواجاً في أمريكا، وهـي مصدر هـذه الثقافة أصــلاً وكان انتشــارها العالمي نتيجة لذلك التأســيس الثقافي الأمريكي، وأنت لن تجد كتب برتراند راســل مثلاً تحصل على أي نسبة مــن المبيعات تؤهلهــا للمقارنة مع هذا النوع مــن الكتب، وفي أمريكا نكتة ثقافية عن آينشــتاين وشــارلي شــابلن، وقد حدث أن تصاحبا في مشــوار للمشي في سان فرانسيسكو، وحينما مرا على جمع من الناس انطلق التصفيق، وهو ما جعل شــابلن يلتفت إلى آينشــتاين ويقول له مجاملاً: إنهم يحيونك ســيدي، فجاءه الرد سريعاً بأن قال آينشــتاين: إني أمر بهؤلاء القوم يومياً على مدى عشرين سنة ولم يلتفت إلي منهم واحد قط.

وقياساً على هذا تمكننا المقارنة بين كتاب عن حياة آينشتاين وآخر عن حياة شــابلن، وســنجد الفرق في المبيعات، وهـي فروق ثقافية لابد من التبصر بأسبابها، وهي أسباب لا تتعلق بالمعاني الرومانسية التي

تلقــي اللوم على الناس وعدم جديتهم وعلى كســاد العلــم الجاد، هذه إحــالات ســاذجة لا تقرأ الظواهر على حقيقة أمرهــا، لأن الأمر يتعلق بفكرة الــرواج وخصائص الفنــون الرائجة في مقابـل العلوم الصعبة والخاصة، وفيما بـين العموم والخصوص تقــوم فواصل وخصائص كثــيرة، ولقــد ورد في مسرحيــة لســوفوكليس أنه كان يلوم الشــباب الرومانــي عـلى عزوفهــم عن فنــون الحــرب وتعلقهم بفنــون المتعة والتســلية، حتى صــاروا يؤثرون قضاء أوقــات في الحمامات أكثر من ممارســتهم للمصارعة، والمصارعة في ذلك الزمن فن يقوم على تقوية الشــباب وتهيئتهم للحــروب والمواجهات، وعزوف الشــباب عن الجاد إلى الممتع أو إلى الضروري نفســياً كلها ســمات ثقافية لا تخص قوماً دون قــوم ولا تاريخاً دون تاريخ، والمصطلح الثقافي المســيطر الآن هو مصطلح الكتاب الأكثر رواجاً مما هو شــاهد على خاصية ثقافية لها أثرها الكبير واللافت.

على أن كتاب لاتحــزن وهو يضرب في أعماق الوتر النفسي قد لامس جانبــاً رمزياً تــم توظيفه بطريقة تلقائية، وهــي أن جملة (لاتحزن) تســتدعي بالضرورة جملــة: إن الله معنا، وهي حمولــة دلالية قوية وعميقة في ثقافتنا حيث حادثــة الانحباس في الغار من تحت الحصار والملاحقة الحســية والنفسية، وهي حادثة الهجرة الكبرى من الخوف والملاحقــة إلى الانطــلاق والتحرر، قصة كانت للرســول عليه الســلام وصاحبــه الصديــق، ويأتــي معناها كعنــوان للكتاب لتحمــل معاني

الخلاص مــن الخوف والملاحقة حيث يقرأ القــارئ هذه المعاني بدافع نفسي غير معلن وتتحرك نفســه باتجاه الانعتاق والخلاص، ولا شــك أن العنوان هنا قد لعب دوره هذا بمفعولية عالية جداً، وســنزيد الأمر كله حديثاً وبحثاً فيما يتلو من مقالات -إن شــاء الله. وإن كنت أشير بعجالة إلى ملمح مهم وهو تقلص دور العائلة وجنوح الفرد نحو مزيد من الفردية، وذلك أمر يقف كســبب لشــيوع بعض أنواع الكتب الأكثر مبيعاً, حيث تحل محل الأهل في تقديم الوصاية والإرشاد وتوفير ملجأ نفــسي مفترض، وهذا مبحث له ما له وســيكون أحد مباحثنا في هذه السلسلة من المقالات.

تصرفي كامرأة / فكري كرجل

ابتدأ ســتيف هارفي حياته في ظل المعانــاة والحرمان، وكان كل شيء يشــير إلى أنه ســيكون واحداً من أبناء الشــوارع، ولم يكن لون بشرته سيساعده، فهو رجل أسود محدود التأهيل، غير أن السبل كلها تفتحت لــه، حيث اســتثمر موهبته الكوميديــة في ترداد النــكات وفي تصريف الحــركات، وانطلقت حياته مــع الكوميديا ليبلغ معها مكانة إعلامية ويحقق شــهرة كبيرة قادته إلى أن يــشرع في تقديم برنامج تلفزيوني صباحي يقوم على المحادثة، وهو ما يســمى في أمريكا ببرامج (التوك شو)، وشاع برنامجه حتى بلغ جمهوره المتابع له يومياً سبعة ملايين،

وممــا يعرض له دائماً هو التحدث بمشــاكل النســاء مع الرجال ومع الحب والحياة.

كونــت له ثقافــة الأحاديــث في البرنامج معرفة بأهم الأســئلة التي تدور في رؤوس النساء الأمريكيات في حياتهن العاطفية، وهذا ما أغراه بتأليف كتاب وضع له عنواناً مغريا هو: تصرفي كامرأة وفكري كرجل، من منشــورات (أمســتاد) في نيويــورك 2009، ومن أول يــوم للكتاب تحققــت له مبيعات عليــا حتى صار الرقــم الأول في قائمة النيويورك تايمز في الكتب الأكثر مبيعاً.

يحمل الكتاب عنواناً إلحاقياً هو: حقيقة تفكير الرجال حول الحب والعلاقــات والالتزام، مع ســؤال مركــزي موجه للمــرأة ويدور حول قضيــة الكتاب: كيف ترين رجلاً وتحتفظين به، وهو ســؤال اكتشــف هارفي مدى حساسيته للنساء اللواتي يقابلهن في برنامجه الصباحي، ولمــس كم هو حســاس ومؤثر. وهــذا ما جعل صفحــة الغلاف تلهب شــعور أي امرأة أمريكية وكثيراً من الرجال، حيث هــي قضية النســاء الأمريكيــات -كما هو حدس المؤلف وخلاصة تجربته- وفي الوقت ذاته جــاءت القضيــة مغرية للرجــال ليعرفوا أين يضعون أنفســهم داخل هذه القضية من باب حب الاســتطلاع من جهة ومن باب التعرف على مشاعر الجنس الآخر.

هــذا دفع بالكتــاب إلى الأمام حاملاً معه الأســئلة، وملغــزاً منذ البدء بفكرة نظرية مثــيرة، وهي أن تتصرف المرأة كأنثى ولكن تفكر كرجل،

وهذه وصفة سحرية أولية عن الفروق الجذرية بين الجنسين (وبكل تأكيد فإن لنا ملاحظات علمية جوهرية هنا ولكن نؤجلها إلى حين)، ونقول الآن إن المؤلف قد لعب على هذه المقولة بمهارة صحفية ذكية جداً، وكعادة هذا النوع من الكتب فهو يستعين باللغة البسيطة وبالقصص والأخبار وبعرض قدرات المؤلف على الادعاء بمعرفته بخفايا المشاعر واحترامه هذه المشاعر مهما بدت ساذجة أو صغيرة أو تلقائية.

وكانت مداخله تدور حول فحص بعض التصورات الأولية مثل التفريق بين الرأي والشعور، وقد صرف على هذه النقطة فصلاً كاملاً يؤسس عبره لقضيته، وركز على أن الشعور الذي يحدث بين اثنين هو الذي يصبغ أحكامهما على بعضهما، ويظل الرأي مخبوءاً تحت سلطة الشعور المتبادل، والطرفان يتحركان تحت قيادة شعور كل واحد منهما عن الآخر دون أن يتعرفا حقيقة عن رأي الواحد منهما برفيقه. وهذا في تصوره هو ما يسبب خيبات أمل كبيرة حينما يرتبط الطرفان تحت قيادة الشعور دون كشف لحقيقة الرأي الذي سيتكشف مع الوقت ليتفاجأ الطرفان بأنهما لا يتناسبان.

هذا قاده إلى أهم فصل في كتابه، وهو الفصل الذي يركز فيه على كشف (الرأي)، والرأي في نظر المؤلف هو ما يمثل حقيقة الرجل وعلى المرأة أن تحسم أمرها من البداية لتتعرف على رأيه فيها، وذلك بأن توجه له خمسة أسئلة رئيسة ومصيرية، هي:

1 - ما أهدافك القريبة...؟

2 – ما أهدافك البعيدة....؟

3 – ما رؤيتك حول العلاقة، وما مفهومك لها...؟

4 – ما رأيك بي....؟

5 – ما شعورك نحوي...؟

وينطلق في مناقشة الأسئلة هذه واحداً واحداً مع عودة للتركيز على الرابع والخامس والتفريق بينهما، أي بين الرأي والشعور، وهو في ذلك يحث المرأة على أن تحسم هذه الأسئلة أولاً وتكشف عن (رأي) الرجل في هذه الأسئلة كلها قبل أن ترتبط معه في رابطة الزواج، ووسط هذه الأسئلة ستتفرع مواقف مهمة من مثل رأيه في إنجاب الأطفال وفي تكوين العائلة، مما هو تصور حاسم لتقرير مصير الزوجية.

هذه أمور قد تبدو ساذجة في المجتمعات التي تعتمد نظام العائلة والترابط الأسري، ولكن المجتمع الغربي باعتماده المطلق على الفردية ستكون هذه الأسئلة مهمة ومصيرية وسيكون الكتاب ضرورة اجتماعية ونفسية.

كتاب هارفي كتاب ينجح في مجتمع تقوم فلسفته على الحرية المطلقة للفرد بحيث يجد الفرد نفسه المسؤول الوحيد عن قراراته، وبما إنه مجتمع مفتوح فإن جدول العلاقات يكون مثل جدول الخيارات، وهنا تخترع الثقافة أوصياء جدداً, وبدلاً من نصائح الجدات تأتي نصائح المؤلفين المغامرين الذي يتنبهون بحدسهم التلقائي للتعرف على دقائق الهموم الفردية فيضربون عليها وهنا تأتي الاستجابات سريعة

وشــاملة لأن المشاكل الملموســة تظل حبيسة على مســتوى الفرد ولا يعلم الفرد أن غيره (غيرها) يشترك في المشكلة نفسها، وإذا رأت المرأة الأمريكية -حســب حدس المؤلف- كتاباً بهذا العنوان فإنها ســتتحرك مباشرة باتجاهه إحساساً منها بأنه قد لمس ما في داخل شعورها وأن فيه الحل لمشــكلتها، وهي لن تقف عند كتاب واحد فقد يصدر غداً أو بعد غد يكون صاحبه أكثر ذكاء ودقة في اختيار عنوان يضرب على وتر نفسي حساس، وسيكون له أيضاً مبيعات كبرى تحتفل لها النيويورك تايمز، وتظل الثقافة تبتكر بدائلها من الأوصياء.

وفي الموضــوع مزيــد كلام، وكل ذلك حول ثقافة الاستشــفاء التي هي المحــرك الأبرز لثقافــة الأكثر مبيعاً، كما ســنتها الثقافــة الأمريكية ثم تسربت للعالم كله في نسبة تتوافق دوماً مع ارتفاع انعزالية الفرد وتقلص دور العائلة، حيث تتفرد الحياة بالشخص لتعزز فرديته وعزلته، وتنشأ عنــده الحاجــة حينئذ لمثــل هذه الكتب التــي تملأ الفــراغ الثقافي وتقدم نوعاً من الآباء الجــدد والوعاظ الجدد. وفيما يخص كتاب هارفي تحديداً فإن ملاحظات علميــة كثيرة لابد من طرحها في نقد الكتاب من الناحية العلمية, وفيه عيوب جذرية سأناقشها في المقالة ما بعد التالية.

الإيمان يشفي

احتاج الدكتور هربنت بنســون إلى السفر إلى جبال الهمالايا والبقاء

طويلاً مع رجال الدين التبت لكي يدرس الأسباب التي تجعلهم مسالمين وطيبين في نفوسهم وفي أبدانهم، وكان يحمل في نفسه المعنى التاريخي القديم الذي يؤكد على أن الإيمان يشفي، وبنسون هذا طبيب نفسي مختص وممارس في جامعة هارفرد، وأصدر كتاباً عنوانه (الاستجابة الاسترخائية) وهو الكتاب الذي حقق مبيعات كبرى وصار الأول في ذلك، ثم أتبعه بكتاب ثانٍ، هو (ما بعد الاستجابة الاسترخائية - Beyond the Relaxation Response) وقد صدر 1984.

لقد بذل بنسون جهداً مكثفاً ليضع صيغة عملية/طبية لهذا المفهوم، وهو يدرك مع ذلك أن مفهوم الإيمان ليست له قيود، ولكنه الإيمان بالمعنى المطلق، المهم للمرء هو أن يؤمن بشكل مقنع وعميق، إما الإيمان الكبير -كما نفهمه نحن بوصفتنا الإسلامية أو يفهمه مؤمنون آخرون لهم صفات أخرى، ومثله الإيمان بفكرة ما؛ أو الإيمان بالذات والثقة بالنفس ونجاحاتها والقناعة بقيمة المرء في الوجود وصلابته أمام التحديات.

يفعل الإيمان فعله بالمرء، ولكن لا بد لهذا الإيمان من تحفيز، وقبل ذلك لا بد من اكتشاف هذا الإيمان والانتماء إليه، والناس تغفل تحت وطأة مشاغلها عن ما لديها من إيمان، ولكل امرئ في هذا الكون إيمان من نوع ما، قد يكون كبيراً ومشهوداً، وقد يكون صغيراً يحتاج إلى كشف وتعرف، وهو حصانة كبرى ومساعد كبير، والغفلة عنه تجعلنا في العراء، ومن استعاده تحصن به للمواجهة.

ومن رحلة بنسـون إلى التبت تولد كتاباه عن (الاسـترخاء) وراح في كلا الكتابين -وأهمها عندي الثاني- يشرح ويبحث عن المشروع، ولقد قرأت الكتاب الثاني بمتعة وتمعن، واسـتفدت منه، ونقلت الفائدة إلى عـدد كبـير من الأصدقاء والمعـارف الذين مرت بهم وتمـر بهم حالات يحتاجـون فيها إلى الاسـترخاء، ولقد وجدت أن قـراءة الكتاب كاملة ليسـت ضرورية، وأهـم ما فيه يتلخـص في ربع صفحـة، وهي التي تعـودت دائماً على تصويرها كما هي للأصدقاء، مع ترجمتها للذين لا يعرفون الإنجليزية، وهي كالتالي:

1 - استلق في مكان مريح -يكون جسدك فيه مرتاحاً كله ولا تحس بـأي ضغط عـلى أعضائك- ولا بـد أن يكون المـكان هادئـاً بعيداً عن أصـوات المزعجات، ولا بد من إغلاق الهاتف والتأكد من عدم وجود أي شيء قد يقطـع خلوتك الصامتة تمام الصمـت، ولمدة عشرين دقيقة متصلة ودون قطع أو إرباك.

2 - أغلق عينيك، واسـمح لأعصابك بالاسـترخاء التام دون شـد أو ضغط.

3 - ركز على تنفسك، وتنفس براحة وبشكل طبيعي، وأطلق عينيك إلى داخل جسـدك حتى لكأنك ترى الهـواء يدخل أنفك متجهاً إلى بطنك (وليس صدرك)، أي اسـحبه إلى داخل البطـن، ولا تقف به عند الصدر ولتشـعر بانتفاخ بطنك بالهواء، ودع عينيك تسيران مع الهواء الداخل إلى جوفك بهـدوء وراحة، وليدخل الهواء مـن الأنف متجهاً للبطن -لا

للصدر- ثم ليخرج من الفم، في تعاقب أكيد من الأنف دخولاً ومن الفم خروجـاً، من بعـد أن يكون ملأ البطن بالهواء، وهذا يحسـن أن يأخذ وقتاً معقولاً، بحيث لا تضغط على نفسـك ولا تسارع في التنفس، لأنك ستحتاج إلى هذا الوقت كما سترى في الخطوة التالية.

4 - اختر جملة أو كلمة يكون لها معنى خاص بك، وقد رأى بنسون أن المؤمنـين باللـه يختـارون كلمـات لها علاقـة بهذا الإيمـان، وعند المسـلمين وجد كلمات مثل: الله أكبر، أو سـبحان اللـه، أو الحمد لله، أو ما يختاره أي مسلم حسـب ارتياح قلبه، بينمـا أصحاب الديانات الأخـرى اختـاروا كلمات تتفق مـع ثقافتهم الدينيـة، واختار غيرهم كلمات تعني لهم شيئاً خاصاً وعميقاً، وهذا هو الشرط، أي أن تختار جملة أو كلمة تعني لك شيئاً مريحاً وتستجيب له أعمق مشاعرك، مع شرط واحد وأكيد، وهو أن تكون الجملة قصيرة ويكفيها الوقت الذي كان فيه تنفسـك في داخل جوفك، وأنت محتـاج إلى ترديد هذه الجملة مع دخول الهواء إلى خروجه، أي أنك ستقولها في خلال العشرين دقيقة مرات ومرات حسـب لحظـات دخول النفس وخروجـه بحيث لا تزيد خارج لحظة التنفس.

5 - لا تسمح للهواجس أن تباغت خلوتك هذه، وكلما جاءك هاجس فقل له: اذهب الآن وعد لاحقاً، واحرص على التركيز الشـديد، مرسـلاً عينيـك المغمضتـين ومركـزاً على جملتـك المختارة داخلة مـع النفس وخارجة معه، واسـتمر على هذا في جلسة استرخائية مريحة لجسدك

وأعصابك لمدة عشرين دقيقة مرتين في اليوم.

يرى الدكتور بنسون أن أثر هذا التمرين على الجسد يظهر بعد مدة من الممارسة لا تقل عن أسابيع، ولذا لا يحسن استعجال النتائج، ويؤكد في كتابه أن التجارب أثبتت نجاحات كبيرة، وقد تمت التجارب في هارفارد، وتعالج أناس من الضغوط النفسية ومن أمراض عضوية أيضاً من مثل ارتفاع ضغط الدم والأرق والصداع، والتوترات بعامة، بل إنه ذكر حالات شفيت من أمراض خبيثة، وأخرى مستعصية.

كل هذا يقوله المؤلف تحت مظلة المعنى القديم الكبير في أن الإيمان يشفي، ولكننا نحتاج إلى تفعيل الإيمان في نفوسنا، وارتأى هو هذه الطريقة لتساعد على تقوية الحس الذاتي وإيمان الإنسان بنفسه والدخول إلى أعماق ذاته عبر تحرير الذات ولو لدقائق في اليوم حيث تأخذ النفس إجازة قصيرة بعيداً عن ضغوطها اليومية المتكالبة عليها.

لقد استفدت أنا شخصياً وأفدت آخرين ممن عرفت، ولا شك أن عون الله ميسور لنا إذا أحسنا طريقة طلبه وأحسنا الاتجاه إليه، لكننا بكل تأكيد نحتاج إلى أنواع من التدريب والتوجيه، وفي لحظات المرض تضيع بوصلة الإنسان ويحتاج حينها إلى من يدله على الطريق ويساعده في الوجهة .

وفي الموضوع مزيد حديث سيتتابع القول فيه فيما يأتي من مقالات.

العنوان بوصفه مادة تسويقية

(هل العقل رجل...!)

-1-

استعرضنا ثلاثة كتب بوصفها أمثلة على ما صار يسمى بالأكثر مبيعاً، وثقافة الأكثر مبيعاً تعني الأكثر استجابة للرغبات العمومية لدى الناس، ولن نتعرف على حقيقة هذه الكتب إلا عبر التعرف على ظروف الاستجابة، فالذي يجعلها أكثر مبيعاً هو في ملامستها لدافع ذاتي عند مستقبليها، وسنجد أدلة على هذه الدوافع إما عبر الاستطلاع وقد فعلنا هذا في مقالنا عن كتاب (لا تحزن) أو عبر خصائص أخرى كنا أشرنا إلى عدد من ملامحها الأساسية المؤثر في صناعة هذا النوع من الكتب، وبقي أن أشير هنا إلى الدور الذي تلعبه العناوين (وبعضهم يفضل أن نقول عنوانات)، وهو دور مهم نراه في تمعننا لها.

ونبدأ بكتاب (لاتحزن) للشيخ عايض القرني، وهو كتاب اعتمد على هذه الجملة: لا تحزن، بما لها من شحنة نفسية ثقافية في الثقافة العربية، والإحالة هنا إلى حادثة الهجرة الكبرى لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- مع صاحبه أبي بكر حيث فرا من مكة ولاحقتهما جحافل قريش بخيلها وقضيضها، مع مكافأة كبيرة لمن يمسك بهما، وكانا يختبآن في الغار اتقاء للمطاردين، ولم يك بينهما وبين العدو المطارد

ســوى نظرة عين، ولو نظر أحد الفرسان إلى حوافر قدمي فرسه لرأى المختبئــين في الغار، وهذا مــا همس به أبو بكــر لصاحبه، حيث جاءه الــرد: «لا تحزن إن الله معنا»، وهذه جملة تاريخية محفورة في ذاكرة الثقافــة العربية، وترتبط ارتباطاً دلالياً وثيقــاً وملازماً بجملة رديفة صاحبت هذه الجملة بتلاحم نفسي عميق، وهو جملة: فأنزل سكينته عليه، وهنا جرى توثيق الصلة المعنوية بين: لا تحزن، ونزول السكينة. وفيما بين الجملتين ترقد ذاكرة لها عمق تاريخي ونفسي متأصل.

لقد جــاء كتاب القرنــي ليجر الذاكــرة القرائية باتجــاه هذا المعنى العميق، وكل امرئ حزين سوف يتبادر إلى ذهنه هذا الترابط التاريخي بــين مواجهة الحزن واصطياد الســكينة التي هــي مطلب أي مكلوم، وهي لحظة المواجهة الواعدة، ولا شــك أن العنوان المختار هنا قد فعل مفعولــه النفــسي في تحريك الأمل بعــين الناظر للكتــاب ومعه تتحفز الذاكرة باحثة عن سكينتها المفقودة، مع تمثل تام لحال القصة الأولى وحــال الخــوف الأول وحال الحزن التأســيسي الــذي كان يهدد مصير الدعــوة كلها، ولكن الله أنقذ الرســالة بنزول الســكينة ومن ثم تمت صناعة التاريخ.

ـ 2 ـ

وإن كنــا ضربنا مثلاً عــلى الدور الإيجابي لوظيفــة العنوان في مثال (لا تحزن) فإننا نعطي مثلاً آخر ســلبياً هــذه المرة، وهو عنوان كتاب

هــارفي (تصرفي كامرأة وفكري كرجــل)، وهو عنوان لعب على الخدعة الثقافية النســقية التي تنســب العقل للرجل وتخصــه بصفة الفكر، وتفــرد العاطفة للنســاء، وهــي خدعة ثقافية تعتمد على ما نســميه بالعمى الثقافي، حيث ينساق البشر نحو معان يكونون قد صنعوها في القدم حتى تمكنت من الاســتقرار الزماني والتواتر الروائي، وكل وهم في الثقافــة إنما يتركــز ويصير بمثابة الحقيقــة إذا توافر له شرطان، هما طول التعاقب الزمني، ثم تواتر القول فيه، ولقد مر على البشرية أزمنة سحيقة وممتدة ثقافياً وتاريخياً تقول إن العقل رجل، وهو قول ممتد في الزمن ومتواتر على الألسنة، وبسببه اتخذ هارفي عنوان كتابه، وكأنه يقدم هدية سحرية للنساء بأن يحصلن على الكنز العظيم الذي ظل بعيداً عنهن، وهو هنا يعدهن بحيلة شيطانية ماكرة لكي يحصلن على الهدية العظمى فيفكرن كالرجال، ولا شك أن هذا العنوان قد خدع الكثيرات لأنهن ضحايا التنويم الثقافي والعمى الفكري، وهو في الوقت ذاته يعزز غرور الرجال بأنهم أهل العقل والفكر.

لــم يخطر ببال المؤلف أن يراجع مقولتــه لأنه ليس من أهل الثقافة المتخصصــة, وهو رجل مــن أهــل الكوميديا ورجل علاقــات عامة لا أكثر، كمــا لم يخطر ببال قارئاته أن يناقشــن عنوانه هذا لأن اللواتي يقرأن الكتاب هن عادة من ضحايا المجتمع الذكوري, ويجذبهن الوعد بمعرفة الطغاة والتعرف على أسلحتهم وسر قوتهم، والكتاب يوهمهن بذلك.

ولا شك أن الكتاب يقوم على عنصرية ثقافية ضد النساء، كما أنه يقوم على وصاية ذكورية واضحة، بمثل ما يستغل ظروف المكلومات والمكلومين أيضاً ويقدم لهن قشة للنجاة مثله مثل ما يسمى بالطب البديل وطب الأعشاب والطب الصيني والشعوذة والتنجيم وغيرها من الفنون التي تروج بين المحتاجين المكلومين ولا لوم عليهم، ومن ذا يعاتب مخنوقاً إذا انتحبا -كما هي كلمة نزار قباني-.

وأخطر ما في هذا النوع من الكتب هو أنه يمر دون نقد، والنقاد عادة لا يقفون عند هذه الكتب استهتاراً بها من جهة، وبسبب كثرتها المفرطة من جهة ثانية، وهي كتب عادة لا تعيش طويلاً ويحل غيرها محلها في دوامة تجارية لا نهائية، وهي مظهر ثقافي عصري، كأحد مظاهر الثقافة الجماهيرية، وهي نوع يقوم على توظيف البعد النسقي للثقافة، ويتخذ من رغبات النفس المقموعة وسيلة للنفاد، وكم تعجبت فعلاً حينما رأيت في بعض مناسبات بعض نساء كنت أعدهن من المثقفات الواعيات ووجدتهن يمتدحن كتاب هارفي ولا ضير من ذلك إذا كنا نريد منه المتعة أو التعرف على واقع الحياة البشرية أو تعلم بعض ما فيه، ولكن يجب ألا يفوت علينا إدراك ما فيه من ضرر ثقافي ومن تعزيز للنسق وتأكيد على الوصاية من جهة وعلى إشاعة حال العمى المعرفي من جهة ثانية.

ويكفي أن نتذكر أن كتاب هارفي يضع ثنائية ثقافية جاهلية ونسقية تقول إن الشعور امرأة وإن الرأي رجل، ويحاول في الكتاب أن يدرس

المرأة كيف يكون لها رأي وكيف تصنع الرأي عبر خمسة أسئلة بسيطة وبدائية, ولقد اســتعرضتها في المقال الرابع من هذه السلسلة، ولا شك أن الدفع بالمرأة لكي تصدق كلام هارفي وتبسيطاته سيجر معه حزمة من الأخطاء النفســية والاجتماعية لا يمكن تصورها إلا بعد حدوثها، وهــو كلام يشــبه الإعلانات وإغراءاتهــا، والثقافتــان متماثلتان بكل تأكيد. وكما نتســاهل مع أنفسنا فنســمح لها بأن تنخدع بالإعلانات مثــلاً أو تســتجيب لإغراءات الموضــة؛ فإننا أيضاً ننســاق وراء الكتب المسماة بالأكثر مبيعاً ونسمح لأنفسنا بأن نصرف مالنا وبعض وقتنا للتمتع بالحش والوشاية والإشاعة والتزجية السريعة والكتب السهلة والروايات الفضائحية، وهكذا مما هو تافه في رأي الفكر الجاد ولكنه -مــع ذلك- يظل ضرورة بشرية بما إنه مصدر للمتعة، ولنتذكر كتاب الأغانــي مثلاً، وهــو كتاب يمكن أن نقــول عنه إنه مــن نوع الأفضل مبيعاً، حيث شاع في ثقافتنا من يوم صدوره حتى اليوم، وهو كتاب في المتعة والحش والسواليف والحكي، أي في الثقافة الجماهيرية وثقافة التسلية، وأينه من كتب الخليل وابن جنى والغزالي مثلاً، ولكن لكل من هذه وقت ولكل من هذا حالة، والمرء يقف عند هذا وعند ذاك، والثقافة -أي ثقافــة- لن تخلو من هذا جميعه، وكما نجد أفلاطون وأرســطو عنــد اليونانيين فإننــا نجد الإلياذة أيضــاً، وقد قال ســوفوكليس عن ثقافة الاستحمام وثقافة المصارعة، حيث في الأولى استرخاء ومتعة وفي الثانية جد وتدريب حربي، وكان يســتنكر على شــباب أثينا تفضيلهم

الاســتحمام عــلى المصارعة، وهو اســتنكار فيه مبالغــة في الطهورية المفترضة، بينما البشر محتاجون لهذا وذاك ولا تقوم الحياة والثقافة إلا بتبادل الوظيفتين معاً، وظيفة الجد ووظيفة المتعة.

لقد أتى هارفي عبر كتابه متقلداً بقلادة النسق الثقافي حتى بدا وكأنه يعرف عن المرأة أكثر مما تعرف عن نفسها، مثله في ذلك مثل ما يشيع بأن نزار قباني عبر عن النســاء بأبلغ مما يعرفن عن أنفســهن، وهذا وهم ثقافي خطير سميته من قبل بالعمى الثقافي (كتاب: النقد الثقافي، الفصل السابع). ولو افترضنا أن كتاب هارفي من تأليف امرأة فإننا لن نــرى عنواناً كعنوانه بأي حال مــن الأحوال، وهذا ما يدفع العجب من شــيوع الكتاب بين النساء ومن إعجاب بعضهن به، وهو ما يفسر لنا مدى خطورة النسق وتغلغله في الذهن الثقافي وتمكنه منه حتى ليحمل المرء والمرأة تصورات تتناقض وينسخ بعضها بعضاً. ولقد لعب هارفي على هذه الحيلة وصارت فعلاً أحد أسباب تسويق الكتاب وشيوعه.

التحفيز الثقافي

في كل مــا اســتعرضته في المقالات الماضية من أمثلــة عن الكتب التي حظيت برواج عريض، وصارت الأكثر مبيعاً، نكتشف أن هذه الثقافة قد صارت في الواجهة اليوم، ومثلما تنتشر ثقافة الصورة وتحتل درجة عاليــة في التأثير والرواج فــإن قوائم الكتب الأكثر مبيعــاً هي أيضاً في

الصدارة البصرية، وتتشــابه الصيغتان من حيث إن الصورة تمحوها صــورة أخرى، وكل صــورة تبرز للصــدارة وتضرب في أعمــاق التأثير الجماهــيري العريض فإنها ما تلبث أن تتراجــع تدريجياً حتى تنتهي للتلاشي حتى لتوشــك أن تغيــب عن الذهن كلياً وتحــل أخرى محلها، وكــذا حال الكتــب الأكثر مبيعاً، فنحن لو اســتعرضنا ملحق الكتب في صحيفة نيويــورك تايمز، وهو الملحق الرائــد في مجال تحديد وجهات الكتب وكشف مســاراتها وإشاعة شهرتها وتســمية البارز منها؛ لو استعرضنا هذا الملحق لأرينا كم هي كريمة المرور، فالكتب التي كانت حديث الصحافة قبل بضعة أشــهر لم تعد كذلــك اليوم، ويحل محلها كتب أخرى تكتســب الصفة نفســها، وســتنتهي نهاية مماثلة أيضاً بعد بضعة أشــهر بل إن بعضها لا يبلغ الشــهور ويتراجع في أسابيع، ولسوف ننبهر فعلاً لو أحصينا عدد الكتب التي وصفتها الجريدة بأنها رقم واحد في الأفضل مبيعاً، وســنجد رقماً كبــيراً من حصيلة كل عام فما بالك بعشرة أعوام.

ولكــن الكتب تتغير بمؤلفيهــا وعناوينها غــير أن الموضوعات تظل متشــابهة وقد نقول إنها واحــدة لا تتغير، وهــي في الغالب مســائل في النفسيات من جهة وفي الفضائحيات وفي الجرأة وكسر حدود المحذور مــن جهة أخرى، وأي كتاب يضرب في أحد هذه الاتجاهات فإنه يتأهل من حيث المبدأ للتحرك في ســلم الأفضليات التســويقية، وهناك بعض مؤشرات عامة تساعد في تسهيل هذه المهمة، ومنها:

1 - المؤلف، حيث يقوم اسم المؤلف كعامل مهم في لفت النظر الأولي، ونحن في أمثلتنا السابقة رأينا ثلاثة مؤلفين لكل واحد منهم أسباب تدعو الجمهور العريض للانتباه، فالشيخ عايض القرني شخصية عامة مر عليها وحولها كلام كثير، شاع به الاسم وصار موضع حديث وموضع تنبه، إضافة إلى كونه داعية وواعظاً له جمهوره العريض عبر وسائل متعددة، أما هربرت بنسون فهو طبيب نفساني ارتبط اسمه بهارفارد، وهي كلمة سحرية في الثقافة الأمريكية، ومجرد إطلاقها كوصف لشخص بأنه أستاذ في هارفارد فإن هذا كفيل بجعله مرجعية مطلقة ومسلماً لها وبها. وفي حالة ستيف هارفي فقد ذكرنا أنه ممثل كوميدي ومقدم برنامج تلفزيوني بلغ عدد متابعيه سبعة ملايين مشاهد.

2 - الموضوع، وهي مسألة حساسة جداً، وهي عادة تنتمي للحدس الذكي، أو لضربة الحظ الموفقة، وذلك حينما يقع المؤلف على موضوع يلامس نقطة ثقافية حساسة في المجتمع، وفي حالة كتاب (لاتحزن) فإن الموضوع لامس حالة اجتماعية يبدو أننا في غفلة عنها بسبب وراثتنا للسكينة الاجتماعية المعهودة فينا من قبل، وهي إحساسنا أننا بخير وأن جيلنا الصاعد هو مثل آبائه في القوة والصلابة والإيمان والرضا بما يجري وما يأتي، وهذه معانٍ تمثل الصورة المسلم بها عن المجتمع ويرى المجتمع ذاته تحت هذه المعاني، غير أن الحياة تغيرت مع الجيل الشاب وصارت هناك حالات من الفردية والاستقلالية تزداد

تدريجياً وتجعل الشـاب يشـعر بأنه وحيد في مواجهـة الكون، وليس مسلحاً بعدة كافية للمواجهة، وفي الوقت ذاته لا يجد جواباً اجتماعياً وأسرياً يأخذ مخاوفه ووساوسـه مأخذ الجد، وكل ما يسمعه فيما لو باح بمشـكلاته هو نصائح شبه قمعية من مثل: اترك عنك الوساوس وتعوذ من الشيطان، وخلك رجال وانتبه لدراستك....إلخ.

في وسط هذه الغفلة جاء كتاب (لاتحزن) ليكون دفتراً شخصياً يعد بكشف الهموم وجلب السعادة، وهي كما قلنا ثقافة الاستشفاء. وكذا الأمر مع الكتابين الآخرين وقد أشرنا لهما في المقالتين الماضيتين.

3 - اللغـة، مـن خصائـص كتب الأكثـر مبيعـاً البسـاطة اللغوية والأسـلوب السـواليفي الذي يعتمد على القصص والحكايات وضرب الأمثال، مع شيء غير قليل من الاسـتطراد الثقـافي حتى ليجد القارئ نفسـه في بعض هذه القصص وهذه الاستطرادات لدرجة يشعر معها وكأنه المعني شـخصياً بالكتـاب، وهذا يعمق علاقتـه بالكتاب، ومن ثـم تعلقه بهـذا النوع من الثقافـة وربما يدمن عليها حتى ليشـتري كتباً أخرى تلامس الهدف نفسـه، ولـذا فإن زبائن الكتب الأكثر مبيعاً في الغرب هم أنفسـهم في كثـير من الأحيان، والداخلـون للتو يكونون بمواصفات مماثلة لأولئك.

4 - الاسـتجابة القرائية، يغلب على زبائـن هذه الكتب أنهم من فئة غير متخصصة في موضوع الكتاب، ومعظمهم ليسـوا من قراء الكتب بالمعنـى العلمي والثقافي، ولن تجد أسـاتذة ولا طلبة علم النفس مثلاً

يلهثون وراء كتاب هارفي بكل تأكيد، كما أن بنســون لن يكون عندهم بمنزلة فرويد، ولن يصنفوه بالمكتشف العظيم ولا بالرائد، ولن يصفوا عمله بأنه نظرية في علم النفس، ولكن كتابه كتاب شعبي يقرؤه غير المختصين ممن يعانون من مشاكل لم يجدوا لها حلاً مهنياً فيتجهون لهارفي وبنســون للمســاعدة والتنفيـس، وهي تفيد ولا شــك، خاصة مــع اقتناع القارئ بوجهة نظر المؤلف. وفي حالة كتاب (لاتحزن) فقد ســمعت من الناشر قصصاً عن أناس من علية القوم وجدوا في الكتاب عزاء وسلوة عن أحزانهم، والحزن هنا لا يفرق بين فقير ووجيه, ولذا يـضرب في كل اتجاه، وإذا حضر احتاج المحزون إلى سـلوى تعينه، ولا شــك أن الكتاب يوفر ذلك، ولكننا نقول إن هذه ليســت مسألة ثقافية والذين يتصفحونه لا يفعلون ذلك لحفظ الأشعار والحكم التي فيه ولا لتعلم لغة التعبير الفصيح ولا حتى للمتعة القرائية، إنهم يفعلون ذلك من باب الاستشفاء والتطبب بالكتاب، وميزة الكتاب هي أنه وقع على جرح عميق مخبوء فتفجرت ينابيع النظر نحوه.

ولقــد قامــت الــدار النــاشرة بترجمــة كتــاب (لاتحــزن) إلى اللغــة الإنجليزية، ولن يكون للكتاب انتشار في هذه اللغة لأنه يعتمد كلياً على المخزون الديني والوجداني للقارئ العربي المســلم، ولذا فلن تجد قراء في الإنجليزيــة لهــذا الكتاب، اللهم إلا إن كانوا مســلمين، وهؤلاء فقط هم الذين يمكن أن يســتوعبوا رســالة الكتاب، وهــذه نقطة مهمة في كلامنــا عن خصائص الكتب ذات المبيعات العليا، وهي أن الكتاب لا بد

أن يـضرب على أعماق الوجدان النفـسي للقراء وإذا ضرب على الجرح العميق واســتخدم الأسلوب المناســب، لغة ومضموناً مع مرجعية من نوع ما للمؤلف، فإنه سيحقق الرواج، وإذا غابت هذه الشروط تلاشت معها فرص الرواج، وفي الإنجليزية كتب كثيرة لا تحصى حول مواضيع الاكتئاب والحزن والنفسيات بعامة، وتحمل أسماء لشخصيات لافتة فعلاً، مما يجعلها متشـبعة ولا يمكن النفاذ إليها إلا باستخدام أدوات ثقافية مماثلة ومنافسة، ولذا فإن (لاتحزن) هو كتاب في العربية ينهل من الوجدان الديني والنفسي للقارئ العربي المسلم وهذه هي الوصفية الأســاس للغة الكتاب وموضوعه، ولو كان عندي وقت لتعرضت للغة الترجمة ولي عليها ملاحظات كثيرة.

وتبعاً لما قلناه عن مخاطبة الوجدان الثقافي العام فإننا نلاحظ أيضاً رواجاً كبيراً لكتب الفضائح وكشــف الأسرار للسياســيين والمشاهير، وللروايات الفضائحية، وهذا انتشــار يصدر عن عما نســميه في النقد الثقافي بالاستجابة النسقية، وهو هنا يخص ميل البشر الفطري نحو الفضول النفسي، في التلذذ بالإشاعات والحش والنكت وإذاعة الأسرار، وهو طبع بشري متأصل، ويأتي هذا النوع من الكتب ليجيب على هذه الرغبات ولذا تشــيع هذه الكتب وتدخل في قوائم الأكثر مبيعاً، وهي في أمريكا كثيرة جداً وتعمر رفــوف المكتبات وتغطيات الصحف ولغطها الدائم، ومثلهــا كتب التنجيم والضرب عــلى الأسرار والأوهام مما هو صور لتجليات الأنساق وتعبيرها عن نفسها.

وأخيراً أقول إن مصطلح (الأكثر مبيعاً) هو مصطلح في التسويق وفي نسق الاستجابات، وليس مصطلحاً في القراءة والثقافة والفكر، ولكل مـن هذين مجاله وعالمه وخصائصه، ولا يصـح علمياً ولا منهجياً أن نضع هذا بجوار ذاك.

الصفحة البيضاء (ما يعرفه الرجال عن النساء)

كان ألان بيـس قد طـرح كتابه العالمي (لغة الجسـد)، وهو الكتاب الـذي تربع على كرسي المبيعـات عالمياً، وحقق أرقامـاً مذهلة في البيع والانتشـار، ثم ألف (بالاشـتراك) كتابـه الآخر ذا الشـهرة أيضاً، وهو بعنوان (لغة الكلام ولغة الكتابة)، وهذه كلها تأسيسات ثقافية دفعت بـه إلى مغامرة ثقافية كبرى، وهـي أن يكتب كتاباً عما يعرفه الرجال عن النساء، وأخذ على عاتقه أن يقول الحقيقة أو (حقيقة الأمر)، كما ورد في العنـوان الجانبي للكتاب، وحقيقـة الأمر هنا مخيفة ومذهلة، ولـذا جاء الكتاب ليواجه المسـألة مواجهة صارمة وطاغية في طريقة الكشـف والاعتراف، وهو باحث معني بالشأن الثقافي ومعني بمسألة العلاقة بين الجنسـين، ويهمه أن يكـون صادقاً وصريحاً، وهذا شرط أخلاقي مثلما هو شرط معرفي.

عبر هذا الـشرط جاء الكتاب حاملاً للعنـوان، وترجمته حرفياً هي كالتـالي: (كل ما يعرفه الرجال عن النسـاء: حقيقة الأمـر)، وأنت إذا رأيت الكتاب في الأسواق ستجده مغلفاً بورق شفاف تقرأ عبره العنوان

وترى رسـمة الغلاف واسـم المؤلف مع رسمات معبرة وموحية، وعلى ظهر الغلاف سـترى اسـم الناشر والتصنيف المكتبي للكتاب، وسـعر الكتـاب، وإذا كنت مثـلي مهتماً بأمر المرأة والثقافة وسـبر الأنسـاق الثقافية فأنت ستبادر إلى شراء الكتاب.

وأول مـا يفعلـه مشـتري الكتاب هـو أن ينزع الـورق المطوي على الكتاب تمهيداً لقراءته وتصفحه، وهنا يحدث ما لا يمكن أن يكون في حسبانك أبداً، خاصة أنك قد دفعت مالاً من جيبك الخاص لتعرف كل ما يعرفه الرجال من أمثالك عن النساء، وهنا ستكتشف المفاجأة العلمية الصارخـة، وهي أن الكتـاب عبارة عن ثلاثمائـة صفحة بيضاء، نعم بيضاء لا شيء فيها، وأنت هنا سـتقلب الصفحـات واحدة تلو أخرى، وسـتجد نفسك في صفحة بيضاء وراء أخرى، حتى نهاية الكتاب، من دون عناوين ولا فهارس ولا كتابات من أي نوع، ولا تعليق ولا رأي.

بيـاض في بياض، وفراغ لغوي وذهنـي، وهذه هي حقيقة الأمر كما يريد ألان بيس أن يقول لك ولنفسه وللجميع من رجال ونساء.

إنك تشـتري هنا ورقاً أبيض قد غلفته دار النشر بين غلافين أنيقين ثـم وضعتـه في تغليف شـفاف محكم الربط من أجل أن تشـتري هذه البضاعة المجهولة والمفاجئة وتترك لتكشف الأمر وحدك، وربما تنفجر ضحكاً حينها وقد تغضب على ما صرفته من مال، وقد تتعجب وربما تسـتنكر، ولكن الأمر كان محسـوماً من الناحيـة القانونية فالكتاب يحمـل تصنيفـاً علميـاً وهـو مسـجل في عدد مـن المكتبـات العلمية

والمؤسســات الجامعية، وعليه اسـم المؤلف وحقوقــه العلمية والمالية مرصودة عالمياً، وإن خلا من أي كلام فإنه يبدو مكتنزاً بالمعاني.

هكذا فإن مؤلف كتاب لغة الجسد وصاحب الأفكار حول لغة الكلام ولغة الكتابة قد وجد نفسه فقيراً من الناحية اللغوية وتبين له أنه عيي وأن الثقافــة عاجــزة عن مده بمادة تعينه على تســويد ورقات كتابه، وكشــف أن جهل الرجل بالمرأة خطير جداً حتى لا يجد في هذه الجهالة أي بارقــة لاســتحلاب الكلام، فقرر كشــف الأمر عبر الــلاكلام، وجاء الكتاب وكأنما هو لغة من لغات الجسد، حيث تقف الصفحة مشهرة عيها وعجزها وكاشفة عن العنة الثقافية في أمر هو من أخطر الأمور.

هنا سنســتذكر كتاب هارفي كما ناقشناه من قبل حيث ينطوي ذلك الكتاب على دعوى معروفة بأن الرجل يعرف عن المرأة أكثر مما تعرفه المرأة عن نفسها، وكان من السائد في ثقافتنا العربية الدعوى بأن نزار قباني في شــعره قد عبر عن المرأة أكثر من تعبيرها عن نفســها، وهي مقولة تتردد بين النســاء ومنهن بعض المثقفات الكاتبات مثلما تتردد بين الرجال، وهي دعوى واهمة تقوم على ما ســميته بالعمى الثقافي، وقد أفضت في هذه المسألة في كتابي (النقد الثقافي -الفصل السابع).

إن مــا يظنــه الرجل في أنه يعرف المرأة هو ظــن واهم وحقيقة الأمر -حســب تعبيرات ألان بيس- أنه يجهلها فعــلاً، وأنه يندفع دون وعي على التعامل معها حســب تصــوره الذكوري للكائن البــشري، وقليلاً مــا يميز الرجل بين ســمات وخصائص الكون الأنثــوي وتلك الخاصة

بالمذكر، وتجري التوهمات تبعاً لذلك، ومن الحق أن نقول إن المرأة تجهل أموراً كثيرة عن الرجل ولذا تقع في لعبة الخداع كثيراً، لأنها تميل إلى تصديق دعاويه وتقبل نظريته وتأخذه مأخذ القبول ثم تكتشف بعد ذلك أنها مخدوعة به، وهذه صيغة متواترة تتردد وتتكرر بشكل مطرد، ويأتي رجال مثل صاحب كتاب (تصرفي كامرأة وفكري كرجل) ليضع وصفات شعبية لتخليص الورطات وفك الأزمات.

إن ما بين الجنسين هي صفحات بيضاء, كان ألان بيس صريحاً وصادقاً في كشف جانب منها، وليس كالمرأة لكشف عالم الأنوثة وعلى الرجل الاعتراف بحقيقة الأمر.

من أخطر عيوبنا الثقافية هو تصورنا لغيرنا كما نتصور أنفسنا فنقيسهم بمقياسنا، ونحن كعرب ومسلمين نشتكي دوماً من تصور الغرب لنا ونرى أنه تصور غير واقعي وأنه تعسفي ونمطي، وهذا صحيح، ولكن علينا أن نعترف أن تصورنا للأوربيين هو أيضاً تصور تعسفي واختزالي، ومثله تصور بعضنا لبعض من فئات وطوائف وطبقات، مثله مثل تصور الرجل للمرأة وتصور المرأة للرجل، وكل يقيس الآخر حسب مرآته الداخلية، ويندر أن يسمح للصورة الخارجية المحايدة بأن تتسرب إلى ذهنه وتأخذ دورها في التشكل والتجسد بصيغة واقعية تستبطن كل جوانب الصورة وإمكاناتها الدلالية والتلقائية.

إن اللعبة الثقافية من أخطر اللعب البشرية، وهي أخطر من الحروب ذاتها, بل إن من يصنع الحروب ويؤسس لها هو التصورات الثقافية

النسقية التي تفرز البشر بين محورين: محور الخير وهي النحن دائماً ومحور الشر وهو الآخرون دائماً، ونستطيع تذكر حماسيات الشعر الجاهلي ومعها جورج دبليو بوش، والفيلسوف الوجودي الكبير سارتر وكلمته: الآخرون هم الجحيم.

وكم هي صورة كاشفة كلمة: المؤمن مرآة أخيه، كما ورد في الحديث الشريف والتي تعني أن المؤمن ليس مرآة نفسه، وهذا هو معناها الضمني العميق، وإذا صار المرء مرآة نفسه فإنه إلى النسقية أقرب. وكم هم قلة نادرة أولئك الناس الذين يعملون بمنطق هذا الحديث فيزنون أنفسهم حسب ميزان الآخرين فيهم ويقبلون ملاحظات ونقد غيرهم لهم وتصديق الصورة الآتية من خارجك بدلاً من الذوبان النرجسي في صورة الذات عن ذاتها. وينتهي بنا المطاف أن نعترف أن دعوانا الكبرى ما هي إلا صفحات بيضاء لم تسودها الكلمات بعد.

ختاماً أود أن أتذكر الزميل الدكتور محمد أبا حسين -رحمه الله- حيث كان سبباً في حصولي على كتاب ألان بيس، وأحضره حينما أوصيته عليه، أتذكره وأتذكر أيامه معنا في القسم وما له من أثر علمي وأخوي لا يعتريه النسيان، عليه رحمة الله وغفرانه.

رفوف المكتبات (رأسمالية الثقافة)

في منتصف السبعينات ظهرت في بريطانيا بدعة جديدة حيث طرحت

المكتبـات العامة فكرة اسـتثمارية تقول إن اسـتعارة الكتب من قبل القراء هو عمل اسـتثماري، فالقارئ إذا اسـتعار الكتاب لبعض الأيام فإنه يستفيد من الكتاب في تحصيل الأفكار وتعلم النظريات إضافة إلى تزجيته لبعض الوقت في المتعة والتسـلي بالقراءة، وهذا كله بسبب ما في الكتاب من مادة هي مصدر كل هذا الإمتاع ومصدر كل تلك المعرفة، وقد جاء هذا من فكر المؤلف ومن كدحه وعرقه البدني والذهني، وهنا جـاءت الفكرة بفرض مبالـغ مادية يدفعها القارئ حسـب عدد أيام الاسـتعارة المنزلية للكتاب، وكان المبلـغ حينها بمعدل (بنس) عن كل يوم، ويرصد المبلغ لمصلحة المؤلف. (البنس يعادل ست هللات).

كانت تلك بمثابة ثورة مضادة، وهي نقلة خطرة باتجاه الرأسـمالية الثقافيـة، وهي نوع من الرأسـمالية غير المعهـودة حينها في بريطانيا، وكانت بريطانيا في ذلك الوقت تجمع بين اشتراكية اجتماعية، ورأسمالية مقننـة، حيـث النظام الرسـمي رأسـمالي، ولكـن الغالب على السـلوك الاجتماعي والثقافي هو الطابع الاشـتراكي، من حيث حقوق الشعب في الصحة والمسـكن والدراسة والثقافة، وكانت الثقافة مجانية في معظم أمورها من مثل دخول المتاحف وتوفر المكتبات العامة مثلها مثل المراكز الصحيـة والضمـان الاجتماعي وغيرها. ولكن رياح الرأسـمالية كانت تهب شـيئاً فشـيئاً لتشـمل أمراً كان تلقائياً وهاهو يصير استثمارياً، ولا شـك أن (بنسـاً) واحداً في اليوم هو مبلغ بسـيط، ولكنه كان يشير إلى تنامـي تصور كان يتشـكل ويفترض أن الفكر اسـتثمار وأن العقل

والخيال هما بضاعة يحق لصاحبهما أن يدخل بهما السوق ويكسب عبرهما مثلما يكسب التاجر في دكانه والصانع في مصنعه.

هي رياح في التغيير كانت تهب من جهة الغرب، من أمريكا، حيث تعزز الفكر الرأسمالي هناك، وقامت أمريكا في نهضتها كلها على تمثل تام للقيم الرأسمالية التي تقوم على حرية السوق وحتمية المنافسة كقانون للفوز والنجاح، وعلى أخذ كل شيء بوصفه سلعة، حتى الوقت، مما جعلهم يفرضون قيمة مالية للنصيحة والمشورة، وهما فكر ووقت من حيث الأصل، وإذا استفدت من فكر أحد ما أو من وقته فلابد أن تدفع مقابل ذلك، مثلما تدفع للبضاعة وللآلة.

في الماضي كانت الكتب هبة جماهيرية، وكانت المحاضرات والندوات مفتوحة ومشاعة، وكان أساتذة الجامعة يعطون أحاديث تخصصية وعامة في وقت الغداء حيث تكون الدعوة مفتوحة تحضر مع طعامك وشرابك وتجلس على كرسي تستمع إلى نقاش في كل قضايا العلم والمعرفة بلا قيود ولا شروط، ومثلها كان قسم الدراما في الجامعة يقدم مسرحيات شكسبير مجانية حيث يؤديها طلبة القسم كتدريب لهم وكمادة للتخرج، ولقد حضرت عدداً منها في الهواء الطلق في منتصف النهار، وكم كانت ممتعة ومفيدة سواء المحاضرات أو المسرحيات، ولكن التحول بدأ يأخذ مساره وصارت الأشياء بالتدريج تأخذ معناها الرأسمالي، وصار كل شيء بثمن، ولقد شهدت لحظات ميلاد بعض هذه المظاهر حيث صرت أرى إعلانات في جامعة إكستر عن محاضرات مكثفة تجرى يوم السبت عن

مواضيع محددة، وللاستماع إليها ثمن محدد كان حينها في حدود عشرة جنيهات عن مدة خمس ساعات عن موضوع معين، ولقد استفدت من بعضها ودفعت المبالغ المطلوبة لحضور جلسات عن شكسبير، وعن أفلاطون وعن المسرح الحديث وعن الفلسفة والنثروبولجيا، وكانت مفيدة فعلاً وتستأهل المبلغ والوقت، ولكن الطريف هو الجنيه الذي دفعته لحضور أمسية شعرية للشاعر الإنجليزي تيد هيوز، وذلك في منتصف عام 1979، وكتبت حينها مقالة بعنوان: للشعر مكان في القرن العشرين، وأتبعتها بعنوان جانبي هو: ليس رداً على غازي القصيبي، وكان الدكتور غازي قد تساءل حينها عما إذا كان للشعر موقع في ذلك القرن، وقد رأيت حينها أن كثرة الحضور لأمسية هيوز مع أنها مدفوعة الثمن يمثل دليلاً على جماهيرية الشعر، ولكن الزمن مر ليؤكد صحة رأي القصيبي، وبريطانيا التي كانت تدفع للشاعر مالاً كي يلقي شعره هي نفسها التي دفعت بجامعة أكسفورد إلى نقض عقودها مع الشعراء ودفع غرامات مالية مقابل إلغاء العقود, مبررة ذلك بأنها لا تريد أن تظل تنشر مادة غير مطلوبة من السوق ولم تعد تستجيب لمتغيرات الزمن.

يأخذ المعنى الرأسمالي بعده بخطى سريعة ظهرت معها جائزة البوكر في بريطانيا، وهي جائزة سباق نحو رفوف المبيعات، وتقوم على مسابقة أبطالها الناشرون والمؤلفون الذين يتسابقون لنشر الروايات التي يعتقدون أنها ستكسب السوق ويقومون بترشيحها، وبما أن فوز واحدة منها لا يشبع رغبات التسويق ابتكروا نظام القائمة

الطويلـة والقائمــة القصيرة وتركوا زمناً يمر فيمــا بين مراحل الإعلان عــن القائمتين ثم زمناً قبل إعلان الفائز النهائي، وهذا أدعى للتســويق وإطالة أمــد الحديث عن الروايات والكتاب، وفي ذلك إشــاعة للموضوع تســاعد على تحفيز المبيعات ويمــر على هذا عدد من الأشــهر تبرز فيه الروايات على الرفوف ويكثر القول حولها في كافة وســائل الإعلام، ولذا يبــذل الناشرون جهوداً مضاعفة في الدفع بمنتجاتهم نحو هذه الحفلة الجماهيرية، وهي حفلة في التسويق والدعاية، يسوق الناشر فيها نفسه مثلما يكسب منها مالاً، ومثله المؤلف طبعاً، وهكذا تتنشأ ثقافة تسويق الكتاب وتســليعه، وهي حفلة تتكرر ســنوياً، ومــن أجلها جرى تقييد النشر بســنة واحدة، وذلك من أجل تكثيف الحس الاحتفالي والاستعداد للمناســبة القادمة من بعد انتهاء عرس الموســم وحصاد القيمة. ولابد لذلــك من توظيــف شرط الذاكرة القصــيرة حيث يجري نســيان الفائز سريعاً من أجل تأهيل الموعد التالي في العام اللاحق لكي تأتي قوائم أخرى تحل محل القوائم الســالفة وتأخذ دورها في الإشهار والتسليع، وهكذا دواليك في لعبة التكثيف الإعلامي ولعبة المسح والنسيان وإحلال أسماء محل أســماء وعناوين محل عناوين، وهذه تنســخ تلك كشرط لحلولها محلها، مثلمــا يحدث في الموضات وحلول موضة محــل أخرى في دوامة متصلة من الإلغاء من جهة والإشهار من جهة أخرى.

تلك ثقافة مضادة للمعنى الاشــتراكي الاجتماعي الذي كان ســائداً بين الشــباب البريطاني -والأوروبي بعامة-، ومثلما غزت الرأسمالية

المطلقة بريطانيا وحولت حزب العمال من حزب اشتراكي إلى واحد من أحزاب الوسط, وجرى إلغاء مبدأ التأميم رسمياً من ميثاق الحزب؛ فإن الرياح هبت علينا في العالم العربي، وجاءت فكرة البوكر التنافسية بقوائمها التسويقية، وجاءت فكرة توقيع الكتب في المعارض وجاءت فكرة اشتراط مبالغ لإلقاء المحاضرات، أي فكرة تسليع العقل والخيال وطرحهما للسوق كبضاعة ومادة للبيع والتثمين.

ومن أطرف المظاهر عندنا هو ما سنته إحدى دور النشر العربية حيث لاحظت أن الديدن العام في طباعة ثلاثة آلاف نسخة من الكتاب غير نافع تسويقياً، لأن انتظار حظوظها مع التسويق مؤملة للوصول إلى نفاد الطبعة الأولى سوف يطول، ولذا صارت تطبع خمسمئة نسخة فقط على أساس أن نفادها لن يطول كثيراً، وهذا سيعطيها مجالاً لإعلان نفاد الطبعة الأولى (من دون ذكر الأرقام) والتبشير بالطبعة الثانية، وهكذا حتى تصنع من الثلاثة آلاف نسخة المعتادة ست طبعات مدعاة، ولقد وجدت الدار أن هذا يعين على الإيهام بأن الكتاب مطلوب وإذا رأى الزبون أن هذا الكتاب قد صدر منه طبعتان في شهور تولد عنده الظن بأهمية الكتاب، وهي لعبة تسويقية حرصت هذه الدار على كتابة رقم الطبعة في الركن الأيسر من أعلى الغلاف وبشكل بارز بما إنه إعلان تسويقي، ولقد بدأت هذه الظاهرة تشيع مع دور نشر عربية عرف عنها الوقار والجدية، ولكنها اكتشفت أن وقارها وجديتها أضعفت سوقها وصرفت عنها الزبائن، وهنا وجدت نفسها

مضطرة إلى مجاراة السوق، وما سنته قوانين البيع والتنافس.

لقد أخذت القيم الرأسمالية مأخذها حتى بلغت صيغ الوجوه والأشكال وجاءت فنون الترويج للشخصيات عبر نظريات تحسين الصورة وتجميل الوجه وتسويق الأسماء والصيغ التعبيرية، وتأسس لذلك وكالات مثلما تتأسس له نظريات وتخصص له باحثون ومعاهد تدريب.

وهو كله ضرب من ضروب السباق إلى الرفوف الأمامية للمكتبات والرفوف الأمامية للذاكرة، ويتراجع قانون الوقار لمصلحة قانون الإثارة، وهي لغة مرحلتنا الحالية، ولم تكُ فكرة الأكثر مبيعاً في ثقافة النشر إلا إحدى مظاهر هذه النظرية الرأسمالية والسوق الحرة والتنافسية الثقافية.

لقد كانت الرأسمالية نظرية اقتصادية من إنتاج الثقافة ومن بنات أفكار الكتب، على أنها نظرية للتجارة والصناعة وما يتبعهما من سياسة مساندة، ولم تكن نظرية في الثقافة، ولكن الصنم يرتد على صانعه ليهيمن عليه ولذا انتهى المطاف بأن خضعت الثقافة للشرط الرأسمالي وترسملت حتى صارت من المسلمات الكلية التي لم تعد موضع تساؤل ولا موضع تحرج، وزالت الطهورية الأولى التي كانت تصبغ الكلمة بالنزاهة والتسامي وتباعد بينها وبين المال حتى صارت الفتاوى الدينية محددة الأسعار بناء على استثمار الوقت والفكر، بوصفهما بضاعة ومادة تجارية.

الفصل الثالث

الأمية: سؤال آخر

الأمية

يأتـي مصطلح الأمية ليكون من أشـد المصطلحات من حيث سـوء الاسـتخدام، ويجـري ربطـه مبـاشرة بالجهل وتنسـب إليه أسـباب التخلف، ويجري دوماً الظن (التوهم...؟) بأن السبيل إلى التقدم هو في محاربة الأمية. وكم ننعي على أنفسـنا في أرقام ونسـب نتداولها حول نسـبة الأمية العربية، ونظل نلوك الكلام موهمين أنفسـنا أن هذا هو سـبب تخلف العرب، وأننا لن نتقدم مادامت الأمية فينا بهذه النسـبة أو تلك.

هـذا كلام أول ما نقـول عنه هو أنه كلام غير صحيـح، ثم إنه كلام لا يقرأ الواقع ولم يقـرأ التاريخ، وأول صور الواقع هي الهند، ويكفي أن نتذكـر الطبقية الاجتماعية والجهل والمرض وكثرة المشـاكل حتى ليبلـغ الأمـر أن يفرز المجتمع طبقة من الناس لا يجوز مسـها تعالياً عليها، وتبلغ نسـبة الأمية درجات عالية حتى لتشـمل مناطق كاملة بمجملها، وسـنمضي بعيداً في القول عن هذه الأوضاع، ولكننا سنقول أيضاً إن الهند بلد متقدم علمياً واقتصادياً وديمقراطياً، مع وجود كل تلك العيوب، وهي عيوب تفوق ما عندنا بأضعاف مضاعفة.

ثم نأتي لنقرأ شـيئاً عن الأمم السالفة، وهي كلها أمم تطغى عليها الأميـة، والفئة القارئة تاريخياً هي فئة قليلة جداً، وهذا حكم يشـمل الأمـم كلها، ونحـن في زمننا الذهبـي في العصر العبـاسي، كنا أمة من الأميين مـن الأندلس حتى الصين والقراء منا كانوا في مراكز محدودة،

وبأرقام محدودة. ومع ذلك كانت الحضارة والترجمة ولنا دولة عظمى تغطي المعمورة في حينها.

لقد انشغلت في فترة مضت بسؤال حول أرقام المخطوطات المتبقية في مكتبات العرب والعالم عن تراثنا العربي، وهالني أن الأرقام صغيرة فعلاً، وأنت لا تجد لمخطوطة ما سوى بضع نسخ هنا أو هناك، قد تصل للعشرات كأقصى حد، ولا تصل للمئات بأي حال، وحينما أقلقني هذا الرقم وصرت معه ازداد قناعة بأن أمتنا ظلت أمة أمية حتى في أزهى عقودها، وتبعاً لذلك تقوى عندي الرأي في أن الأمية ليست معياراً يصح القياس عليه للحكم على التقدم، ومن باب التأكد من سلامة إحصاءاتي حول المخطوطات وأعدادها الصغيرة، فإنني تشاورت مع الصديق الدكتور عبدالعزيز المانع، الذي أكد لي صحة معلوماتي، وذكر لي أرقاماً لا تختلف عما وصلت إليه من أرقام، وهي كلها نسخ قليلة ومحدودة (وسأتوسع في هذه المسألة في مقالة تلحق -إن شاء الله-).

ولو فرضنا أن سائلاً طرح فكرة الضياع والتلف والحرق، وتمثل لنا بحادثة سقوط بغداد على يد التتار؛ فإن الأمر سيظل على حاله، لأننا مازلنا نتكلم عن نسخ محدودة حتى في دمشق والقاهرة وبلاد الحرمين والأندلس، ومهما ضاع شيء من المخطوطات فإن المتبقي علامة على الضائع، والنسبة بين ثلاث نسخ من مخطوط ما في مقابل ما يمكن أن يكون قد ضاع منه ستظل في حدود ضيقة، ولن نطرح ملايين النسخ مقابل ثلاث نسخ، ونقول إن الملايين ضاعت والثلاث

بقيت، ولكننا سنقول عن رقم يتقارب في تناسبه مع العدد ثلاثة أو عشرة. ثم إن الشواهد التاريخية تشير إلى حدود الواقعة الثقافية، فكل ما نعرفه عن ثقافتنا القديمة هو في بعض المراكز العلمية وبعض دور العلم وبعض المكتبات، وهي كلها تأتي في أرقام محدودة جداً، خمس مدن وسبعة مراكز وبضع مكتبات، وكل ذلك في بحر لجي من البشر المنسيين في كافة أصقاع مملكة العرب، ولأي واحد منا أن يسأل نفسه عن الجزيرة العربية والأناضول الأولى وشمال أفريقيا وسائر بلدان الأندلس، ولن يجد حينئذ ذكراً لأي منها لا في مساجد كبرى ولا مدارس ولا رجال علم ولا غير ذلك.

إذن.. فنحن إذا تكلمنا عن مجدنا التليد فإننا نتكلم عن فئة نخبوية قادت الفكر والمعرفة وصنعت الثقافة وسط بحر مائج من الأمية، ولم يضرها ذلك، وما كانت الأمية سبباً للتخلف ولا سبباً لضعف حضاري أو علمي، بل إن الأميين هم من فتح المعمورة، ومازال ذلك قائماً، وكل جيش في العالم يتكون من نسبة عظمى من العاديين ويقودهم رجل أو فئة غير عادية وينتهي الأمر. هذا في الحديث مثلما هو في القديم، حتى لقد نشرت الصحف الأمريكية تقارير عن جنودهم وجاءت الإجابات مذهلة في جهل الجنود لمهمتهم وجهلهم بالبلدان التي يقاتلون فيها، وهذه حالة الجموع دوماً.

ثم نأتي إلى ما هو أخطر من ذلك وهو أن الأمية ليست رديف الجهالة، كما أن القراءة والكتابة ليست رديفاً للعلم، ولكي أوضح ذلك سأطرح

ثلاث جمل كاشفة هي:

1 - امرؤ القيس أمي لا يقرأ ولا يكتب.

2 - طه حسين أمي لا يقرأ ولا يكتب.

3- محمود درويش أمي لا يقرأ ولا يكتب.

لو قلنا هذه الجمل بهذا التتابع، سنرى أننا نقبل بالأولى دون أن يترتب عليها تقليل من شأن امرئ القيس، وسنقول إنه أمي وهو لا يقرأ ولا يكتب من دون وجل، أما مع طه حسين فسنقول إنه لا يقرأ ولا يكتب، ولكننا لن نرضى بوصفه بالأمي، أما محمود درويش فإننا سنرفض الفكرتين معاً، ولو صحت إحداهما عنه فهذا سيقلل من شأنه، بينما لن يقل شأن امرئ القيس في الصفتين معاً.

من هذه اللعبة الثقافية سنرى أن الأمية لم تكن شرطاً للثقافة عند امرئ القيس لأن عصره كان عصراً أمياً، ولكنه كان عصراً ثقافياً حتى لنجعله نحن المتعلمين نموذجاً يحتذى, وكنا نرى أن من يحفظ شعره ويعرف سيرته هو المثقف النموذجي.

وإذا جئنا لطه حسين فإننا سنسلم حتماً أن القراءة والكتابة ليست شرطاً للتعلم وهذا الذي لا يقرأ ولا يكتب هو عميد الأدب العربي في عصر يسمى بعصر النهضة والتحديث، ولكن هذا لم يمنع الأذن أن تكون مادة للتعلم، وفي حالته كان السماع هو المصدر للمعرفة، وإذا قلنا هذا فإننا سنقول حتماً إن كل سماع هو تعليم، وسيكون الأميون في كل مكان مؤهلين للتعلم والتحضر عبر السماع.

وإذا عدنا لمحمود درويش فإننا حتما سنحتقره لو ثبت عندنا أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب، وذلك لغلبة الظن الواهم عندنا بأن التعلم والشهادات هي العلامة على الثقافة ولا سبيل سواها، وهذا وهم معرفي وربما أقول إنه تجاري جرى تسويقه من أرباب المدارس وأرباب الكتاب من ناشرين ومؤلفين، وهم من يروج لفكرة التعليم والتعلم وحصره بشرط القراءة والكتابة ومن ثم الكتاب ومبيعات الكتب وانتشار عادة القراءة، ونمضي في ذلك من غير تمعن ولا روية، ولم نسأل أنفسنا قط ماذا لو تحول الشعب العربي كله إلى قراء وكتبة... هل سنغزو المريخ بهؤلاء الكتبة...؟ والأصح أن أقول: أنصاف الكتبة...؟!!!.

في كل التواريخ من يصنع الحضارات هم أفراد قليلون ويتبعهم جموع لا تحصى، والذي يغير هي الأفكار والرؤى الكبرى، وهي التي تحول البشر من الخمول إلى الفتوحات، ومثال أمتنا الأمية واضح للعيان، حيث تحول خمولها التاريخي إلى انفتاح عالمي ابتلع الجغرافيا والحضارات في بضع سنوات.

إن كل حالة تدقيق في المصطلحات والمقولات تكشف لنا كم نحن خاضعون لما نخترعه من معان، وكم تتحكم المعاني فينا حتى لنقع في الأوهام ونحن نظن أننا نتحرر منها، لم تكن الأمية قط علامة على الجهل ولم تكن قط عائقاً حضارياً، وربما أجازف أكثر وأقول كم جنى العلم علينا من جنايات فأنتج الجهل والأمراض والحروب، وعلى المستوى الإنساني سنلاحظ حتماً أن الأمي طيب وبسيط وروحاني،

بينمـا العالم يميل للتأدلج والعنجهيـة والتمذهب، وأخطر منه نصف العالم ونصف الطبيب ونصف الفقيه، كما هو القول المأثور عمن يقتل الناس ويلقي بهم في الجحيم.

وسـيكون لي عودة لمزيد مـن القول في الأمـر وفي المخطوطات أفصل القول فيهما إن شـاء اللـه. وإلى حينها فإني أطلب مـن الأعزة القراء والقارئـات التأمل معي بهذا السـؤال: هل لو تعلم العرب -كل العرب- القـراءة والكتابة وخلصـوا من الأمية تماماً.. هل سـنغزو المريخ من الغد...؟!!!.

الأستاذ

منـذ أن وصلـت الثقافة البشريـة إلى مرحلة امتهـان الكتابة كأداة معرفية في التأليف والتواصل وهي تميل شـيئاً فشيئاً إلى تمييز الكتبة بوصفهم طبقـة علمية ومعرفية تتفوق عقليـاً وطبقياً على غيرهم، والرجل الوضيع المهمش يصبـح مكيناً وعلى منزلة رفيعة إذا ما اتخذ الكتابة والتأليف له حرفة ومجالاً تداولياً كشأن الجاحظ الذي جاء من قاع المجتمع ومن هامشه الملغى ليصبح على شأن كبير بما إنه مؤلف تطـرق أبوابه رموز زمانه ليؤلف لهم مؤلفـاً يقترحونه أو يهديه لهم -كما تكشف مقدمات كتبه-.

والمسـألة ابتدأت منذ زمـن أفلاطون الذي لم يكن مـن بيوت الحكم

والمال، ولكنه فيلسوف اعتمد الكتابة أداة ومعنى، ومع اعتماده الكتابة لتوصيل الأفكار تميز عن أستاذه سقراط الذي كان شفاهياً يعتمد على المحادثة والمحاورة، وهذا ما جعل سقراط شعبياً مثله مثل تلاميذه بينما جاء أفلاطون حاملاً ومؤسساً لنوع خاص من الطبقية الفكرية، حيث ارتبط خطابه الفلسفي بالتعالي والعنجهية بما إنه يقوم على احتقار البسطاء مع فرز قطعي يبعد النساء والعبيد والصبيان والأجانب ويقلل من قيمتهم الإنسانية والمعاشية والعقلية. ولا شك أن هذا الترابط الطبقي بين الفلسفة في نشأتها التأسيسية وبين الكتابة ثم بينهما والطبقية المتعالية هو أمر تشهد عليه الوقائع وتبين مقدار كل ما هو كتابي على ما هو شفاهي، ومع الزمن جرى فرز المصطلحات فيما بين المتعلم والأمي، حيث ينسب العلم والتعلم لشرط إجادة القراءة والكتابة ومن لا يملكهما فهو أمي، وكلمة أمي ستكتسب مع الزمن معنى الجهل والتخلف، وكل محاولة لدرء الجهل والتخلف سوف تفترض أنها لن تتم إلا عبر تعليم الناس القراءة والكتابة، وسيجري تعزيز هذا الافتراض حتى ليصبح قاعدة كونية، وتقوم عليه خطط وسياسات ونظريات تربوية واجتماعية مبنية على هذا الأساس النظري الذي سيكون سلوكاً بشرياً يومياً حيث سيجنح الناس إلى تحقير أي أمي بدعوى أن الأمية جهالة، وكما أشرنا في المقالة السابقة، فإن الأمية هي مسألة محصورة حصراً قاطعاً بعدم القراءة والكتابة، ومن قرأ وكتب لا يسمى أمياً، وهنا يتكشف الخلل التعريفي،

لأننا حتماً سنقول عن امرئ القيس وعن طه حسين إنهما لا يقرآن ولا يكتبان ولذا هما أميان، ولكننا لن نقول إنهما جاهلان.

ولكــن، ومع مثول هذين المثالين أمامنا سـيظل النــاس يقولون إن الأميــة هي الجهالة وسـيقال إن هذا هو سـبب أو علامــة تأخر الأمة العربية مثلاً، وسـنظل نتوهم أننـــا لو علمنا العرب القــراءة والكتابة فإننا سنحل مشــكلة التخلف. وهذا تصور لا شك في خطئه ولا شك في مجافاته لتحليل المشكل أو تصوره.

وسأسـوق مثالاً واقعياً صــار لأخي صالح حيث كان مسـؤولاً عن مصلحة الميــاه في منطقة البدائع في القصيــم وكان ينوي رفع الطاقة المائية هناك فاتجه مع المهندسين والفنيين يمسحون السفوح والأودية لرصد مواقع لحفر بئرين للماء، وظل الفريق يعمل ويتحرك لساعات، وكان أخي يلحظ أن رجلاً مســناً يتابعهم متفرجاً عليهم ومســتطلعاً لأمرهم ولم يكن يتكلم أو يعلق، واكتفى بالمشاهدة والملاحظة، وحينما قــرر فريق العمــل موقعين للحفر فيهمــا تحرك الشــيخ باتجاه أخي متوســماً فيه أنه رئيس القوم لملاحظتــه أن الحديث يبدأ منه وينتهي إليه، وتفوه الشــيخ بعد صمت طويل وقال: يا اســتاد (بالدال المهملة -كما هو النطق الشعبي) هل أنت ريس القوم... وهل لي أن أسألك عن اختياركم لهذين البئرين وهل هو عن علم جديد لكم....؟!!

يقول أخي إنه حينما سمع كلام الرجل الأمي بدا له أن في الأمر خبراً مغريــاً، ولــذا بادره بالرد قائلاً لــه: تفضل ياعم.. قل مــا تريد قوله...

وحينها قال الشيخ إننا يا ولدي في زمننا الأول لا نحفر بئرين متتابعين شـمالاً وجنوباً، ولكننا نجعلهما متجاورين عن شرق وغرب، لأن الماء يجري من الشمال إلى الجنوب وإذا اشتغل البئر الشمالي منع تدفق الماء عن الجنوبي، أما إن كان شرقاً عنه أو غرباً فإنهما يتدفقان معاً ودون تأثر.

ابتسـم أخـي في وجه الرجل وشـكره ثم أمر الفريـق بتعديل مواقع الآبـار وتصحيح ترتيبها من شـمال وجنوب إلى تجـاور شرقي غربي، وقال لنجرب هـذا الحل ولنأخذه بالاعتبار في كل مشـاريعنا القادمة، ولقـد صح عنـده بالتجربة أن قول الرجل الأمـي كان أدق وأصدق من تصورات المهندسـين والفنيين وآلاتهم الفاحصة بكل ما فيها من دقة مادية أو نظريات متواترة.

لقـد كان كلام الشـيخ الفلاح مبنيـاً على تجربة تواتـرت وتعلم هو وجيله منها، ومع أنه أمي ومتواضع وقد يصف نفسه بالجاهل -كما هي عادة هؤلاء البشر، حسـب مـا فرضته عليهم ثقافة المتعلمين من ترسـيمهم تحت هذا المصطلح الظالم فعلاً-، ولسوف نجد أن التجربة هذه توحي بتصور مهم إسـتراتيجياً وهو أن المياه تتدفق من الشمال، ربمـا من جبال الأناضول أو ما وراءهـا، ومثلما هناك أنهار على وجه الأرض فهناك أنهار في جوفها تمر من الشمال إلى الجنوب، في كل أرجاء جزيرة العرب، وهذا ما هو ملموس في القصيم، وقد يعني هذا أن مياهنا ليست (كلها) مخزوناً أرضياً قديماً قابلاً للنفاد كما هو المتصور العام،

ولكـن هنـاك مياهاً جوفية مختزنـة من القدم وبإزائهـا مياه جارية كأنهار دائمة التدفق، والتجربـة الفلاحية تقول ذلك وتؤكده، وتجربة أخي صالح وفريق العمل معه تتجه لقبول هذا الاستنتاج ولقد نجحت تجربتهـم العملية تلك وهنـاك مؤشرات لديهم تقـول إن الماء من هذا النوع من الآبار السـطحية ذات العمق الذي لا يزيد عن مئة وخمسين متراً أو في حدودها؛ لا يتناقص مع الاستخدام.

هـذه قصـة واقعيـة لرجل أمي صـار أكثـر حكمة وأكثـر دقة من المتعلمـين، ولـن ننـسى الجانب التربـوي هنا أيضـاً، وهـي أن الأمية مصحوبة بدرجة عالية من التواضع وكل أمي أو أمية يتسم سلوكهم بالإنسـانية من حيث تقديم أنفسـهم وملاحظاتهم وأسـئلتهم تحت غطاء البساطة والاحتمالية والاستفسار التلقائي، بينما يرتبط التعلم بالادعاء والفوقية والقطعية، وهذا فارق نلمسـه بين فلسفة سقراط وفلسفة أفلاطون حيث كان سقراط حوارياً وتفاعلياً وتوصيلياً بشكل إنسـاني وهذا ما نقله تلامذته عن سـلوكه معهم حتى لقد قبل حكم الجماعـة عليه ورضي بأن يقتل بما إن هذا هـو رأي المجتمع وقراره، وكم هو فرق جذري عن طبقية أفلاطون وتعاليه العنصري والعقلي.

في كل مـرة يعود المـرء فيها إلى زمن الأمية -ولـكل واحد منا مرحلة معهـا ولو قصـيرة- فإنه يعـود إلى شيء من التوازن مع نفسـه ومع عالمه، وهناك شـواهد كثيرة تشـير أن العلماء الكبـار كلما كبرت بهم السـن وصاروا شـفاهيين وحكاواتيين صاروا أكثر حكمـة وواقعية،

حتى كبار الساسة والقادة والمفكرين السياسيين والاقتصاديين إذا ما خلوا لأنفسهم وتخففوا من سلطوية التخصص عليهم فإنهم يبدون في حال تأملية تصفي أفكارهم في مصفاة التأمل الاستطرادي والتبصر بما مر وما كان وما خبروه فتأتي لهم روح نقدية ذاتية وروح في التبصر والتروي لم تكن لهم وقت حماسهم ووقت اندماجهم العضوي مع نظرياتهم، وهذه أمور تثبتها الحوارات التلفزيونية مع أهل الخبرة والتاريخ حيث تراهم على كرسي التلفاز وكأنهم غير ما رأيت في بطون الكتب ولا على مقاعد التحكم، وتراهم إنسانيين بدرجة تذهل من يشاهدهم يتحدثون ويستخدمون الوسائل المباشرة في التعبير كحركات الوجه واليدين. وكم ظهر أناس من علية الطبقات ومن أشداء التاريخ ومع ذلك تتدفق دموعهم وتضطرب حركاتهم ويظهرون أطفالاً من بعد عمر من الجبروت. وهذا مظهر من مظاهر زمن الأمية والفطرية تقمعه سلطة الكتابة وادعاءاتها ولكنه يحتال لنفسه بالعودة مهما قمعناه تحت دعوى البدائية والتخلف، وما هو كذلك.

إن أشد قيم التخلف ليست الأمية ولكنه التعليم الادعائي بأنصاف المتعلمين كما قال المثل (ما قتل الناس سوى ثلاثة: نصف طبيب ونصف فقيه ونصف عالم).

إن التعليم الخداع هو التعليم القاتل وهو شبه التعليم وشبه التقدم، وكم ذا نجد أن التعليم هو تجهيل والأمية أفضل منه لأن الأمية تواضع

وتسليم بعدم المعرفة، ونصف العلم أن تقول لا أعلم، أما العلمية الواهمة فهي ادعاء وعنجهية ومن ثم هي خطر داهم ومتصل. ولقد قال لويس باستور كلمته الشهيرة: إن قليلاً من العلم يبعدنا عن الله وإن كثيراً منه يقربنا إليه.

في كل مرة يتقوى العلم ويشتد يأخذ بإنسانية الإنسان وبشرطه الوجودي الأهم، وفي كل مرة يكون التعلم شبه تعلم فهو الكارثة، وهو التخلف، وما كانت الأمية هي سبب التخلف كما لن تكون قراءة الأبجديات وضرب لوحة الحاسوب هي الوعد التقدمي.

المخطوطات أو علامات التقدم والتأخر

تأتي المخطوطات لتكون هي العلامة الثقافية الخالدة في تراثنا، ومنها نشأت مؤسسات ثقافية مهمة، أولها دور الكتب التي تحتوي هذه المخطوطات في بلادنا وفي أوربا حيث ترحلت أعداد منها إلى مكتبات الاستشراق واستقرت هناك ومنها نشأ علم تحقيق المخطوطات، وهو علم تولاه المستشرقون وتفننوا فيه ونشروا عبره كنوزا من التراث العربي، وما زالت بعض النسخ المطبوعة في أوربا تتواتر بين أيدينا عبر تصويرها في نسخ يتغير لون الغلاف ولكن يبقى الداخل كما هو حسب طباعته قبل عقود من السنوات، وكم أجد الأمر ممتعاً حيث أحتفظ بنسخ من هذا النوع مما هو مطبوع في هولندا أو ألمانيا قبل عشرات السنين في مطالع القرن الماضي، وتولت بعض دور النشر العربية إعادة

نـشره (أو سرقة نـشره) وظلت الورقات تشـهد على مصـدر الطبعة وأساسـها وأساس تحقيقها، ومنها كتاب طبقات الشعراء لابن سلام الجمحي وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة وهما كتابان حققا ونشرا في أوربا قبل أكثر من قرن من الزمان، وهذا ما تكشـفه الورقات كلها ولكن الغلاف المجلد يحمل اسم وشعار دور نشر عربية وضعت اسمها على جهد غيرها.

أخـذ العرب المحدثـون مهنة التحقيق عن المسـتشرقين، وجاء جيل من المحققين العرب وحملوا عـلى عواتقهم تحقيق التراث، وصار هذا فنـاً وعلماً له رجاله ولـه تاريخه العريض، ولي مـع التحقيق قصص أولها أنني كنت على مشارف هذا التخصص وأوشكت أن أكون محققاً فعلاً، وذلك أننـي بعد عودتي من البعثة عام 1978 كانت جامعة الملك عبدالعزيز تضم شـطرين أحدهما مكة والآخر جدة، وكانت جدة هي الأحـدث بينما كانت العراقة والثقـل في مكة، خاصة في علوم الشريعة واللغـة العربية، وكنت ميالاً لجدة وذلك تطلعـاً لفرص العمل الريادي لحداثة كل شيء فيها بينما الأمور في مكة قد اسـتقرت منذ عقود، ولا مجال لأسـتاذ جديد أن يشـق طريقاً خاصاً لأفكاره وسط ذلك الجمع المتخصـص والمتمكن من الموقع وهم أصحاب الرأي والقرار، ولذا كنت أوثر الموقع الجديد لما يمكن أن تتوفر فيه من فرص الابتكار في المناهج وفي الوسائل معاً، ولكنني وبعد أن مررت أوراقي على مجلس الجامعة، وكان الأمـر يحتاج إلى عمل مكثف لأن أصحاب تخصص اللغة العربية

عـادة يتم توجيههـم إلى مكة مباشرة، وتلك كانـت عقبة تهدد رغبتي في جدة ولقد علمت لاحقاً أن ممثلي شـطر مكة حاولوا الاعتراض على أمـر تعييني في جدة وهم بعضهم بالمطالبـة بإحالتي إلى مكة ولكنهم تراجعوا عن الفكرة تحسباً لعدم رغبتي، ولذا مر تعييني بجدة بسلام، ولكن المشـكلة نشأت حينما تبين أن ملفي وكل سجلاتي محفوظة في مكة، وهنا احتجت إلى رحلة إلى مكة مصحوباً بخطاب رسـمي يطلب تحويـل ملفي إلى جدة تمهيداً لإصدار قـرار تعييني، وفي مكة حرصت عـلى أخذ ملفي قبـل مقابلة الأصدقـاء هناك، وما أن اسـتلمت الملف حتـى رأيت الدكتـور عبدالله الجربوع الذي خطـف الملف من بين يدي مزمعاً التحفظ علي وعلى ملفي لكي يقنعني بالبقاء في مكة، واستعان عـلي بالصديـق عبدالرحمن السـليمان العثيمين، ووجـدت نفسي بين الجربوع والعثيمين حيث قاداني إلى مركز المخطوطات، وبدأ العثيمين يفتح الأدراج ويعرض المخطوطات مع شرح وافٍ لكل ما في المركز من كنـوز تراثية، وكأنما كان يعرض ماء زلالاً على رجل يلوك لسـانه من العطش، لقد كان منظر المخطوطات مغرياً وفاتناً فعلاً، وأوشـكت أن ألين لحظتها، وأتقبل التعيين في مكة وذلك من شـدة تشوقي وتعطشي لهذه الكنوز ورأيت نفسي محققاً متخصصاً بين هذه الأوراق المفرودة أمامـي، ولكنني راجعت نفسي وأخذت عزة العناد والتشـبث بالموقف وشـددت على أحاسـيسي وتحايلت على مضيفي بقولي إنني سـأدرس الأمـر، وأخـذت ملفي من يـد الجربـوع وذهبت إلى موقف السـيارات

حيث ركبت مع أول سـيارة أجرة عائـداً إلى جدة مع ملفي حيث صدر قـرار تعييني هنـاك، وانتهى أمري مـع المخطوطات. ولا بـد أن أقول إن عبدالرحمـن بن سـليمان العثيمـين كان وقتها عـام 1978 يظهر وعياً مذهلاً بالمخطوطات وكان وعيه ذاك يشـعرك أنه سـيصبح عالماً متفرداً في التحقيق ومرجعاً يشـار إليه ويعتمـد عليه، وقد صار فعلاً حيـث أصبح مرجعاً علمياً عربياً وعالمياً في مجال تحقيق المخطوطات العربية، وكان المرحوم محمود شـاكر يرشـحه لهذا الدور ويصفه به وقد صار، ونعم العالم المحقق هو.

أما فيما يتعلق بي فقد انتهى أمري مع المخطوطات والتحقيق كمهنة ولكن حبي للنص المخطوط لم ينقطع قط، وما زلت أجد متعة خاصة كلمـا رأيت مخطوطة، وكم يفتنني منظر الورق والحبر وخطوط اليد وتنسـيق الصفحـات وما تحمله بعضهـا من ألـوان وتعرجات، حتى لكأني أنظر إلى حديقة زهور غناء.

ذاك حـب متأصـل للكتاب وللتراث، وهو ما حفظ في ذهني الأسـئلة عن هذا التراث، وكان مما يشـغل بالي هو عدد النسخ لأي مخطوطة، وكنت ألاحظ أن الأعداد دوماً قليلة ولا تجد من كتاب مخطوط سـوى بضع نسخ متوزعة في أرجاء العالم من تركيا إلى أوربا إلى مصر والمغرب والشام واليمن.

كان السـؤال عندي ما الذي يجعل المخطوطات محدودة النسخ، مع أن مـا يتواتـر في قولنا هو عن مجد عريق في بغـداد وغيرها وأن الكتب

كانت تعمر عالمنا القديم، والسؤال هنا هو: أين هاتيك الكتب التي نتصور أنها تملأ مجال المعمورة العربية والإسلامية....؟!

كنت أحمل هذا السؤال وتصوري هو أن الأعداد قليلة والأمة لم تكن تقرأ بمثل ما نوهم أنفسنا عنها، وظللت على هذا التصور سنيناً إلى أن قررت أن أحسم الأمر حيث صرت أطرح الأسئلة بصدق هل القراءة والكتابة فعل عمومي أم أنها عمل نخبوي وتخصصي ضيق ومحدود، والدليل يأتي من أرقام المخطوطات التي تشير إلى أعداد قليلة، حتى ولو قلنا بالضياع والتلاشي وما قام به المغول من حرق وتمزيق وما طالته يد التلف والزمن، حتى لو قلنا بهذا فإن السؤال يظل شاهراً وجهه... وهو أن الأعداد التي نجدها الآن تشير إلى ضآلة في الرقم، مما يؤكد أمية الثقافة ومحدودية القراء، ويشير إلى أن عالم الكتاب بسيط من حيث الأرقام.

وهنا صار لي حديث مع الصديق الدكتور عبدالعزيز المانع عرضت عليه رأيي هذا، وتفاجأت به يؤكد ظنوني بسرعة شديدة ويعطيني أرقاماً عززت ما ذهبت إليه، وقد قدم المعلومات بوثائق مصورة، وأثبت لي أن أكبر رقم لمخطوطة هو عن مخطوطة (شرح الواحدي لديوان المتنبي) وقد بلغت مئة نسخة، وهذا هو أعلى رقم معروف، باستثناء كتاب واحد هو في الواقع كراس مدرسي وهو كتاب (دلائل الخيرات) الذي وجد منه خمسمئة نسخة، ولكنه كتاب معد للطلبة ويتداوله الدارسون كمادة مقررة، أما ما عدا ذلك فهو بأعداد قليلة بعضها

نسخة واحدة فقط، وبعضها بضع نسخ ولم يصل للمئة سوى كتاب الواحدي ذاك.

هنا يتعزز القول إن فعل القراءة والثقافة كان فعلاً محصوراً ومحدوداً، والذي يقرر مصير التقدم في أمة من الأمم ليس هو وجود ملايين البشر ممن يقرؤون ويكتبون، ولكنها فئة قليلة تجيد هذا الدور وتتمكن منه تمكناً إبداعياً وعلمياً وهي التي تقود الأمة للتقدم، وهذا ما تدل عليه وقائع التاريخ كلها فشكسبير كان واحداً بين الملايين، والعلماء اليوم من المخترعين هم فئة محدودة، كما أن الأمية في الهند اليوم هي أكبر رقم في العالم، ولم يمنع هذا من أن تتقدم الهند وتتفوق، وهي لم تتفوق بملايين القراء ولكنها تفوقت بأعداد محددة من العلماء حصلوا على تأهيل علمي مع نوع من أخلاقيات العمل والمثابرة ولذا حققوا مرادهم.

كنت أريد أن أقول إن الأمية ليست جهلاً، هذا من جهة، وإنها ليست هي التي تعيق الأمة عن التقدم، ومؤشر المخطوطات العربية يؤكد أن أسلافنا وقد تقدموا وصرنا نفاخر بهم، إنما تقدموا بجهد أفراد صنعوا المعرفة بمثابرة وجهد مكثف صادق، وليس بطوابير من الملايين، ولا شك أن الملايين ضرورية للمعارك الحربية، ولكنها ليست شرطاً للتقدم العلمي. والظن أن العرب متأخرون اليوم بسبب عموم الأمية يصبح وهماً وسذاجة في التحليل، والعلة ولا شك ليست من الأمية، والأمية لم تكن عائقاً في القديم ولا هي عائق في الحديث. ولكن العلة

هي في الضعـف التخصصي وضعف أخلاقيات العمـل وحوافز الإبداع. وعلى رأسها عندنا تأتي القوامع التي تمارسها المؤسسة والمجتمع ضد التحفـز الذاتي مما يؤدي إلى تدجين الـروح الإبداعية وترويضها حتى تصبح مثل سائر القطيع، وهذه سيرة ذاتية لكل واحد منا تقريباً وهي في الوقت ذاته سيرة اجتماعية عامة ومشهودة.

وأنا هنا أؤكد على معنى أســاس وهو أن الأمية ليست رديف الجهل ولا هــي نقيـض الثقافــة، ولكــن البلوى هــي فيما يســميه صديقنا الأستاذ إبراهيم البليهي بعلم الجهل وبنية التخلف، وهم عندي أنصاف المتعلمين الذين لا يتمتعون بطيبة الأمية وتواضعها وفي الوقت ذاته لم يدركوا الوعي المعرفي وأخلاقيات الابتــكار, ويزيدون الأمر ظلامية بألا يتركـوا الأمر لأهله وهذا هــو التكدس الحضاري القاتـل فعلاً، مع ما يصاحبه من قمع متصل لكل فكر ابتكاري.

الشفاهية الإلكترونية

الإنســان كائن شفاهي بالضرورة وتلعب الشـفاهية دوراً عاطفياً جوهرياً في حياة الإنسان، وما كانت الكتابة منذ اختراعها المبكر سوى فعـل مصاحب تخصــص في وظائف محددة وتكاد تكــون مصطنعة، بينما ظل الدافع الحكائي (الشــفاهي) هو أقــوى النوازع البشرية في فعل الاتصال والتواصل.

ومــن أبرز الفعاليــات البشرية هي فعالية (الحــش) وهي الوظيفة

اللغوية العجائبية التي صارت بمثابة اللازمة الاجتماعية والثقافية، وبدا الإنسان وكأنما هو معتمد اعتماداً نفسياً وحياتياً على هذه الوظيفة، على الرغم من الموقف السلبي من هذه الوظيفة، وما من أحد على المستوى الشخصي أو على مستوى الوعي الأخلاقي والسلوكي إلا ويتكلم ضد خاصية الحش ويذمها ويزيد في ذمها، وهي شرعياً تسمى بالغيبة، ويجري التحذير منها والتشديد في ذلك، ولا يختلف اثنان على حرمتها وسوئها، وفي الوقت ذاته لا يجتمع اثنان إلا وأخذا بتلابيب الحديث عن الآخرين الغائبين، ولعل المجتمع استعاض عن كلمة الغيبة بكلمة (الحش) من باب المواربة وتجنب التحدي الصارخ لكلمة (الغيبة) وما تستحضره هذه الكلمة من نصوص شرعية وأخلاقية في التحذير منها، والناس لا يقولون عن أنفسهم إننا أمضينا ليلتنا نغتاب البشر، ولكنهم سيقولون إننا كنا نحش بالناس وبفلان وفلان، والمعنى واحد ولكن إحدى الكلمتين مشحونة بالتحذير والأخرى تبدو عليها دلالات العبثية والتزجية.

ومع مصطلح الغيبة يأتي مصطلح النميمة، والنميمة كلمة مصاحبة لا تكتمل معاني الغيبة أو الحش إلا بها، وذلك أن النمام ينقل وقائع جلسات الغيبة ويوصلها إلى الضحايا، وهي فعاليات يشعر ممارسوها بلذة عجيبة في فعلها، وقد يصعب عليهم مقاومتها وكأنما هي وظيفة عضوية يتحرك بها اللسان ولا يرتاح صاحبها حتى يخرجها من سره، والوظيفتان معاً، الغيبة والنميمة، محرمتان بشدة

ومذمومتـان بتركيز قوي، وفي الآن ذاته هما مرغوبتان وممارسـتان، ولا يخلـو منهما مجلس أو لقاء بين أكثر من شـخص، ولا تسـتغني عنهما اللغـة بوصفها قيمة تواصلية وتداوليـة، ولا المجتمع بوصفه منظومـة علاقات وتعـارف بين الفئات. وكل فـرد اجتماعي هو في آن واحد مادة للحش وللنميمة مثلماً هو صانع لهما حالاً بحال.

لـم تـزل الحال على هذا الشـأن وهي حال ثقافية عريقة وشـاملة، وحينمـا جاء الاختراع الحديث في الإنترنت، وسـهل أمـر الدخول إليها والتحـرك اللغـوي والتواصـلي عبرها تعززت وسـائل وفـرص الحش والنميمـة، فالإنترنت حلت محل النمام الشـفاهي البسـيط، وصارت هـذه الأداة التكنولوجيـة ميدانـاً عريضـاً للغيبة وللنميمة وبأوسـع صورهمـا الممكنة، وإذا عثر امرؤ على معلومـة سرية وتحركت عنده رغبـات الفضح والنـم سرى بها بجـرة أصبع على الشاشـة البيضاء وتحركـت معه كل روابط التواصل لتعميم هذا السر ووضعه في صيغة تداولية غير نهائية.

هنا نشـأ النمام التكنولوجي الحديث، ومعـه زادت فرص ومجالات الحش والغيبة، وتسنى للمغتاب والنمام أن يتستر وراء أقنعة كثيفة، أولها الاسـم المسـتعار ومعها وسـيلة التحرك غير المراقبـة، مع توفر السـلامة الاجتماعية والرسمية، على خلاف السابق في زمن الشـفاهية البدائية حيث كان اكتشـاف الفاعل ميسراً بسبب المباشرة والمحدودية الظرفية، مع ضيق مجال الدائرة التواصلية ومن ثم إمكانية حصرها،

ثــم إن النمــام في حــال الشــفاهية البدائيــة يبــاشر العمل بشــخصه وبحضوره التام، أما مع الإنترنت فإن الأقنعة من اليسر بحيث تشــكل واقياً حصيناً يســهل العملية من جهــة ويفتح آفاق الحركة من جهة ثانيــة حتى لتتحرك الكلمــات مثل حركة الرياح، تلــك الحركة التي لا تدري كيف تأتي ولا إلى أي مدى ستذهب، وتصعب مهمة تتبعها حتى لتبدو بحكم الحركة التلقائية الذاتية التي لا يد لأحد عليها.

هذا منشــط جديد للشــفاهية الحديثة أو الشــفاهية التكنولوجية، وعبرها يمارس الإنسان أحب وظائفه اللغوية وأبرزها.

تدخل هذه الفعالية متصاحبة مع علاقة الإنســان مع الزمن، فالمرء مــع تعلقــه بالحياة ورغبتــه الغالبــة في أن يمتد به العمــر إلا أنه وفي الوقت ذاته يشــعر بطول الزمن ويعلن عن ذلك بتشــكيه من الطفش والملــل، وهو يعالج هــذا بالمجالســة والمحادثة، وهما معــاً وظيفتان اجتماعيتان ونفســيتان، ولا غنى للمرء عنهما، ولو حرم منهما فإنه يشــعر بالعذاب، ولذا صار أشــد أنواع التعذيب في السجون هو السجن الانفرادي حيــث الحرمان التام من المجالســة والمحادثة، أي الحرمان من الاحتياجات النفســية والاجتماعية. وقد أدرك صناع الإنترنت هذه الحاجــة البشرية، فاســتغلوها بأعلى درجات الاســتغلال حيث فتحوا المجال لهذه الممارسة على أوسع باب، ولم يتردد البشر في انتهاز فرصة الولوج عبر هذه الأبواب المشرعة، فصار لهم الميدان والمتنفس لممارسة رغباتهــم الفطريــة والسرية والوجدانيــة، في حين وجد تجــار المواقع

الإلكترونية باباً للكسب والإعلان والتسويق عبر هذا التدافع البشري الذي يكثر أعداد المترددين ويقوي فرص تواصلهم وحضورهم مما هو كسب في تحشيد الناس ومن ثم تسريب الإعلانات إليهم.

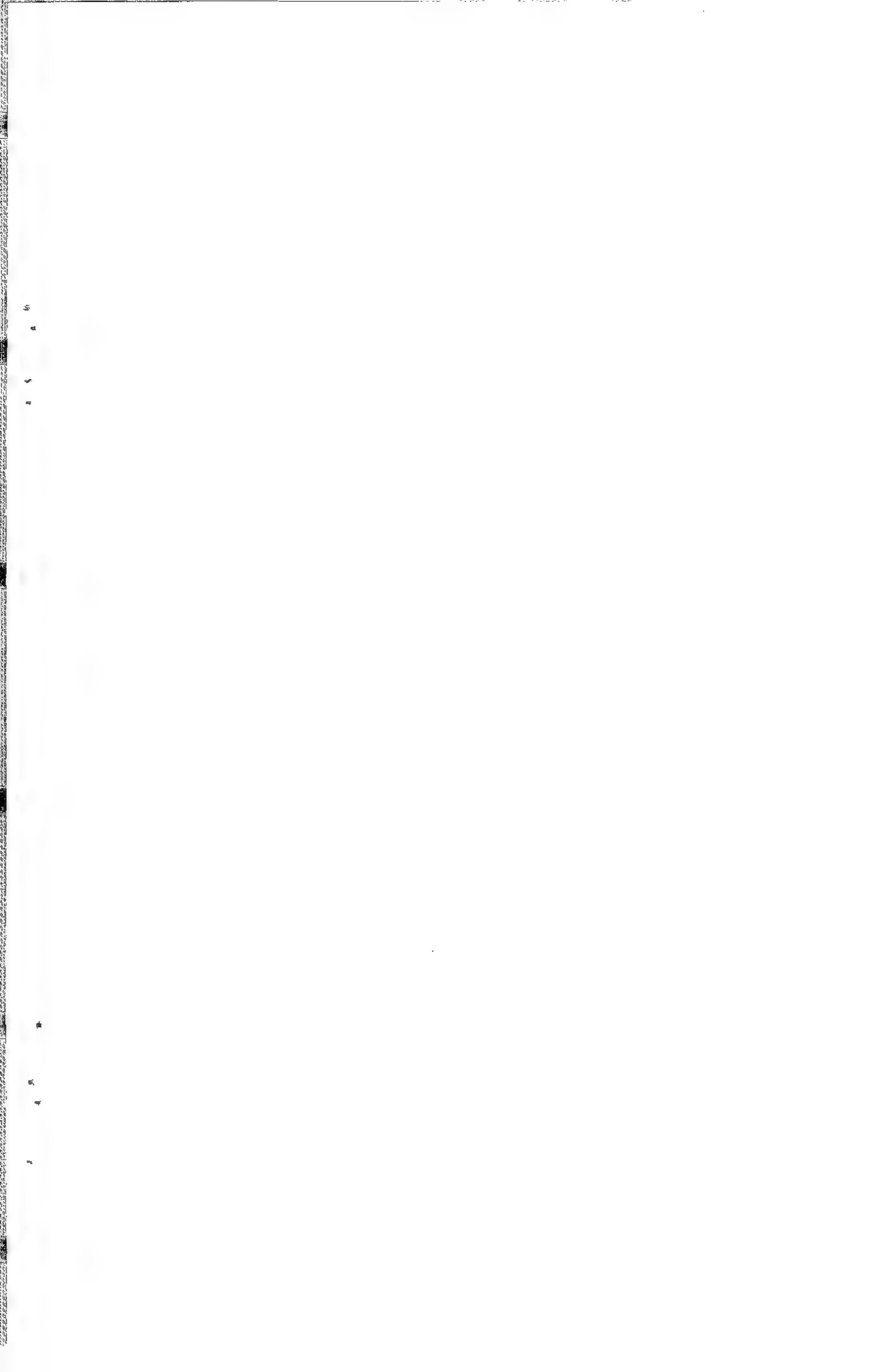
ويدخل في هذا ما حدث للوقت عند الناس حيث لم يعد أحد يشتكي من نقص فرص تزجية الوقت، ولقد كنت مرة في حديث مع صديق من أصدقاء الطفولة، وكنت أسأله ماذا يعمل بوقته بعد أن تقاعد، فرد علي مباشرة قائلاً: إن الإنترنت لا تدع مجالاً للطفش. وهذا أمر واقعي بما إن الإنترنت خلقت للناس قيماً تواصلية جديدة وعبر الشاشة تجري ممارسة كل الرغبات جيدها وسلبيها دون رقيب وبأيسر السبل والتكاليف.

هذا نوع من الشفاهية يمثل تنويعاً على سبل تعامل الإنسان مع اللغة، بدءاً من لغة الحكي التداولية ذات الصيغة الفطرية، إلى لغة الكتاب ذات التركيب الاصطناعي وهي تقوم على قانون التواصل البعيد زماناً ومكاناً، حيث لا يعلم كاتب الخط عن مآلات كلماته المنقوشة على الورق لا من حيث أبعادها الزمانية أو معابرها الجغرافية، ثم تأتي هذه الشفاهية الجديدة (التكنولوجية) وتفتح كل الآفاق بلا قيود من أي نوع، ويظل البشر يخترعون وسائل من بعد وسائل من أجل كسر حدود التواصل وفتح مجالات الممارسة اللغوية، وهم يتخلصون حتى من الرقيب الذاتي وذلك بالتحرر من الاسم الصريح واستخدام أسماء مستعارة تنزع كل شرط أو وازع أو تحرج، وهنا يظهر المخبوء

ويفصـــح المرء عن أشرس مـــا فيه ويمارس نســـقيته في فراغ كوني لا توقفه الرخص ولا الأذونات.

الفصل الرابع

حكايات الكتاب



بسكليت القراءة

استخدم والـدي -رحمه الله- كل وسـائله للبحث لي عن بسـكليت جديد، وقد كان عندي دراجة على مقدار جسمي من تلك التي يسمونها (أربعة وعشرين) وهو مقاسها, حيث تأتي متوسطة الحجم وتناسب صبيـاً بعمر الحادية عـشرة من العمر، ولكن جسـمي كبر مع الزمن والبسـكليت تعرض للإنهاك، ولذا فكر والدي بـشراء دراجة جديدة لي بمقاس (سـت وعشرين) وتعذر الحصول عليها في سـوق عنيزة, ولذا أوصى والـدي صديقاً له من أهـل بريدة كي يبحث لي عن واحدة هناك، ومرت أسـابيع دون خبر عن البسـكليت، ولما جـاء الخبر كان بالنفي إذ لم يجد صاحبنا إلا دراجات قديمة مسـتعملة وهذه لم تكن في وارد الاعتبـار، ولـذا كان لابد من الانتظـار إلى أن يتيسر رجـل من الرياض ليأتيني بالدراجة الموعودة، وهذا ما صار بعد تكرم صديقنا البريداوي -رحمـه اللـه- وتكفل لوالـدي بإحضـار دراجة بتلك الصفـات، وكم كانـت فرحتي حينما جاء رجل إلى والدي في الـدكان في العصرية وقال له خل عبدالله يذهب إلى موقف السـيارات القادمة من الرياض ليأخذ بسـكليته التـي أحضرها سـليمان المرزوق معه محققـاً بذلك وصية أبي، لقـد غمرتني الفرحـة إلى درجة أنني لم أسـتطع ركوب الدراجة فجسـمي يرتعش طرباً ونشـوة ثم إنها تبدت لي وكأنها أكبر من سني حيـث كانت عاليـة الصهوة وضخمـة المقاس وكنت قـد تعودت على

الحجــم الصغير أقفــز عليها كالعصفور وأنط بهــا من فوق الصخور والطلعــات ولا أبــالي، أما هذه فهي جديــدة وبراقة وكبــيرة أيضاً وأنا بإزائها مجرد عصفور فعلاً، ولذا قطعت بها الطريق من الموقف حتى البيــت وأنا أقودها ســيراً عــلى الأقدام، ولم أقلق لتعليقــات كل من مر علي مستنكراً مشيي ويدي على البسكليت ومردفاً أنني لن أقوى عليها وكانــت الاقتراحات تأتي بأن أبيعها وجاءتني بعض العروض المغرية، ولكن أين لي أن أســتجيب بعد طول حلم وسخاء الأمنيات والتصورات عن دراجة تأتي مــن الرياض كأجمل هدية يهديها لي والدي، ولم يكن بد من الاســتعانة بعمي عبدالرحمن -رحمه اللــه- لكي يتولى تدريبي على ركــوب الدراجة الكبيرة والمناورة فيها وكان ماهراً في هذه الأمور، ولــه خبرة مــع الدراجات لا تخلو مــن طرافة وكان عمــي من أطرف النــاس ونكتته تشــيع بين أهل عنيــزة، ومنها ما يتعلق بالبســكليتات التي كانوا يطلقون عليها مســمى (حصــان إبليس) وكان هناك شيء مــن الكراهية لها ولذا وصفوها بهذه الصفة، وفي مرة كان عمي راكباً على صهوة دراجته وإذا به يســمع رجلاً يصرخ به ناهراً ومســتنكراً: يــا الغذامي... تركب حصان إبليس...؟!، فرد عليه مباشرة: لا ياعم.... أبــشرك لقد اشــتريتها منه، وصارت الآن حصان الغذامي، ولقد شــاع خبر هذه النكتة حتى بلغت للشــيخ السعدي -رحمه الله- وأرسل من عنده رسولاً يقول لعمي مبروك عليك البسكليت.

لقــد أخــذ عمي يدربنــي على حصــان الغذامي الذي لم يعــد حصاناً

لإبليس، ولم يفت وقت حتى صرت فارساً مغواراً على دراجتي الجديدة وتغلبت على الحجم الكبير بعد أن تعلمت كيف أمدد قدمي وأجر ظهري باتجاه المقود ومع تكرار العملية قهرت الصعوبة وامتطيت بسكليتي في حفلة فرح يومية أمام زملائي في المعهد وفي الحارة.

مرت سنة أو أكثر وأنا أعيش هذه الفرحة حتى جاء يوم طرق فيه باب بيتنا صديقي الأثير محمد السليم -رحمه الله- وقال لي إن الشاعر صالح الأحمد العثيمين تعين ملحقاً ثقافياً خارج المملكة وإنه باع مكتبته بما تحمل من كنوز الكتب واشترتها منه مكتبة اليحيا والكتب كلها معروضة في تلك المكتبة، وهنا انطلقت مع محمد حيث رأينا كل ما يثير وما يغري من كتب التراث والدواوين والموسوعات، ولكن أين الفلوس...؟؟

هنا لم أجد بداً من التضحية ببسكليتي الأثير على نفسي وعرضته للبيع وهو الأمر الذي أسال لعاب كل الزملاء الذين كانوا يغبطونني على ذلك البسكليت وتمت البيعة مع أول عرض حيث بعته بمئة وثمانين ريالاً بناقص عشرين ريالاً من بعد استعماله أكثر من عام. ضحيت بالدراجة من أجل الكتب، وحينما سألني والدي كيف سأذهب للمعهد كل صباح علمت أن السؤال كان يضمر ملامة خفية لأنني كنت أتعلل بأن الطريق للمعهد طويل وأن هذا يسبب لي التأخر عن الدروس، وكنت أقول هذا للضغط للحصول على دراجة كبيرة تذلل لي الطريق وتعينني على الدراسة، وقد حصلت على الدراجة فعلاً ولكنني الآن أعرضها للبيع، ولم يكن سؤال والدي إلا من باب إثارة النكتة وتذكيري بدعاوي السابقة

وانفضاحهـا الآن. بعـت البسـكليت واسـتعضت بقيمته كتبـاً قفزت بمكتبتي مـن بضعة كتب إلى عشرات الكتب والمدونـات والمجلدات، وما زالت هذه الكتب عندي أعود إليها حتى اليوم، مقلباً في صفحاتها وأشم فيهـا رائحة الطفولـة وأزقة المسـهرية -حارتنا في عنيـزة- وأرى ختم مكتبة اليحيا، ولكن اسم الشاعر صالح العثيمين ليس عليها، ويبدو أنه لم يكن معتاداً على كتابة اسـمه على الكتاب، أما أنا فقد سجلت اسمي على كل كتاب ومعه تاريخ الاقتناء، وما نسـيت أبداً أنني في ذلك التاريخ قد شرعت في الذهاب إلى المعهد مشـياً على الأقدام، ولم أفاتح والدي قط من وقتها عن الدراجات ولا عن مشوار المعهد ولا عن طول الطريق، لقد تحولـت الدراجة من آلة للسـير إلى ورقات من الكتـب والتراث وتركتني في موعد مفتوح مع أجمل الأحلام، بدءاً من حلم البسـكليت القادم من العاصمة إلى حلم الشاعر المهاجر الذي ترك لنا كتبه واشتريناها بمبالغ تناسـب قدرات جيوبنـا، والمئة والثمانـون ريالاً أمدتنـي بعشرات من المجلدات والكتب التي تراوحت أسـعارها ما بين خمسـة ريالات للكتب المفردة وعشرين ريالاً لذوات الأجزاء المكررة والمجلدة.

كانـت تلك هي آخـر دراجة أمتلكهـا من بعد تجربة ثـلاث دراجات متعاقبـة ختمتها هـذه الدراجة التي لو علمت عـن مكانها اليوم -إن كانـت على قيد الوجود- لدفعت فيهـا الآلاف لكي أكرم مثواها وأكتب عليهـا كلمات الامتنان والمحبة لدراجة منحتني مكتبة ما زالت تؤنس بيتي وذاكرتي.

ريشة النعام

لست خبيراً بالورق ولكني صديق قديم للكتاب ومدمن على القراءة، ولســت أعرف مــا الذي يجعل صفحــات كتاب الكامــل للمبرد تتكسر صفحاته بين يدي كلما عن لي أن أراجع مسألة من عنده، لقد اشتريت الكتــاب بأجزائه الثلاثة 1963 وهو تاريخ ســجلته بيدي على صفحة الغــلاف الداخلية وبالتاريخ الهجري 1383 باســمي الثلاثي مع كلمة عنيزة حيث اشــتريت الكتاب مــن مكتبة اليحيا وأظنه كان من الكتب المســتعملة وتحديداً من كتب الشــاعر صالح الأحمــد العثيمين، ولقد ذكــرت من قبل قصة ســفره وبيعه لكتبه، والكتــاب من تحقيق زكي مبارك ومنشور في مصر عام 1936، وهذا تاريخ قديم فعلاً ولكنه ليس إلى الحد الذي تبدأ الصفحات فيه بالتلف، وما يعتري صفحاته من تلف يجعلني أتشبث بالكتاب أكثر وأكثر ولذا أعامله برفق شديد ولا أسمح لأي يــد أخرى بأن تمتــد إليه، ولقد وضعته في مكان آمن في رف المكتبة خشــية أن تمتد إليه يد غير يدي فيجري لصفحاته ما لا أحمد عقباه. إنه كتاب أثير عندي ربما بســببه أحببت المــبرد وصارت مقولات المبرد جــزءاً من مرجعياتي في عدد من أبحاثــي، وعنه أخذت فكرة (تكاذيب الأعراب) وهي التي صارت إحدى أهم أعمالي وشغلتني شغلتها كثيراً.

لم يكن كتاب المبرد هو الوحيد الذي امتلكته في صغري، بعد أن بعت دراجتي الأثيرة على نفسي واشــتريت بثمنها كتباً صارت عندي أساساً لذاكرتــي الثقافيــة والقرائية؛ ويزامــن مع هذا الكتــاب كتاب آخر له

منزلة خاصة عندي، وهو كتاب (مروج الذهب)، وهو من حيث الشراء كان أسبق من كتاب المبرد بسنة حسب التاريخ المسجل عليه، ولكن طباعته كانت أحدث فهو من مطبوعات 1958، ولست أرى أن ذلك هو السبب في متانة ورقه وحصانتها، والكتاب هذا بأجزائه الأربعة ما زال في وضع جيد وقوي على عكس كتاب المبرد الذي تعرضت أوراقه للتكسر وكأنه قطع من خشب وقراءته تحتاج إلى يد رحيمة تتلمس أنفاسها وهي تقلب ورقة على ورقة كي لا تزداد التكسرات وتصيب الكتاب بعطب عميق أو تقضي عليه تماماً.

يحتل الكتابان عندي منزلة خاصة أحدهما لمرضه وعلته التي تجلب له رحمتي وشفقتي، والآخر لما فيه من ذكرى صارت بالنسبة لي بمثابة المفاجأة المذهلة، لقد قرأت مروج الذهب في صغري وأحببته وظل يترحل معي من عنيزة إلى الرياض، ثم عاد إلى عنيزة حينما ذهبت أنا إلى بريطانيا في السبعينيات للبعثة، وبعد عودتي استجمعت كل كتبي ووحدت مكانها معي في جدة ثم في الرياض، وإن كنت قد تنقلت في حياتي بين عشرة منازل فإن كتبي قد ترحلت معي أيضاً بين عشر مكتبات، وكنت قد اتخذت طريقة رياضية أضبط فيها طريقة ترحيل الكتب بحيث تظل على نظامها من حيث الرفوف والمواقع دون تغيير حفاظاً على ترتيب علاقتي معها وعلى نظام خارطتها المكانية والبصرية ليستمر تعرفي على مواقعها دون خلل، وذلك بأن أضع لكل دولاب رقماً ولكل رف حرفاً, وتنتقل الكتب من بيت إلى بيت حسب ما

هو مسـجل عـلى كراتين النقل من أرقام وحـروف، وتكون رفوف هذا البيت مثل رفوف سابقه في الترقيم والتحريف، وهذا أراحني من مغبات الارتباك والتورط في التعرف من جديد على ما كنت أعرف من قبل.

بعد رحلاتي المتعددة وتقطعاتـي عن بعض كتبي تفاجأت مرة وأنا أقلب في كتاب مروج الذهب أن وجدت ورقة صغيرة تتسـلل وتسـقط وأنا أقلـب في صفحات الجزء الثالث من الكتاب، وحينما كشـفت عن الصفحـة 357 تهاوت تلـك الوريقة الصغيرة عـلى الأرض فالتقطتها مباشرة ونظرت فيها وأخذت أقرأ ما كتب فيها وهو:

(في هذا اليوم المبارك الأغر أقف عند عتبة انتهاء سنه كامله لمصادقتي الكتب ومحادثتها - وتمام ربع سنة لممارستي الإنتاج الأدبي الشعري. أرجو من الله عز وجل أن يدمني على القرائه اليومية وأن يهبني زيادة في محبتها وأن يرزقني ثقافة واسـعة ومعرفة عامة واطلاعا تاما إنه سـميع مجيب. عنيـزة. ع. م. غ) - وعلى رأس الوريقـة كتب التاريخ 4/10 /1383 (1963).

لقـد نقلت الورقة هنـا بأخطائها الإملائية، وكنت حينها في السـنة الأولى ثانوي، والورقة تقول لي إنني بدأت القراءة قبل سـنة من تاريخ كتابة الورقة وهي السـنة التـي توافق تاريخ اقتنائـي لمروج الذهب، ومع القراءة بدأت كتابة الشعر.

لا شـك أننـي ممتن لنفسي الآن أن تركت قول الشـعر لأنني اكتشـفت في وقت معقول أنني لسـت شـاعراً وأن شـعري من النوع الوسط، وهذه

لحظة مهمة في حياتي تقرر بها مســار تفكيري واتجهت إلى ما أتقن بدلاً مـن الدوران حول مــا لا أتقن، ولكنني أتذكر فعلاً أنني كنت أدفع بنفسي لقول الشـعر وأطمع لأن أكون شـاعراً وأوشـكت أن أغلط غلطة عظمى وأنشر ديواني، ولو فعلت ذلك لندمت اليوم ندماً لا مرد له حيث سأكشف عن أضعف ما في قدراتي وأضل عالقاً بغلطتي تلك، ولكن الله ستر.

ولي أن أقـول إنني قد فرحـت فرحاً طفولياً برؤية ورقتـي تلك، ورأيت فيهـا طفولتي عياناً بيانـاً من حيث خطي وقلمي وأنفـاسي وأيضاً عبر أخطائـي الإملائية في وقت ما كان يصـح لي أن أخطئ في الإملاء، وذلك لأن التعليم في المعهد العلمي كان قوياً والمحاسبة فيه كانت صارمة، ومع ذلك جـاءت التاء المربوطة وكأنها هاء مثلما جاءت كلمة القراءة على كرسي، ولا أعرف كيف جاءت عبارة (أن يدمني) بدلاً من يديم علي أو يديمني.

هي أخطاء جميلة وأجمل منها خطي -على قبحه الأزلي الذي عرفت به نفسي وعرفني به صحبي وأسـاتذتي، حتى إن الشيخ العثيمين -رحمه اللـه- اقــترح علي مـرة أن أغير قلمـي، وكان بهذا يوحــي لي بأدبه الجم وتربويته العالية أن خطي قبيح, ويقول لي تلميحاً حاول تحسين خطك، وهــذا ما فهمته من اقتراحه لي بتغيــير نوعية القلم والحبر، كأنما يقول جرب حظك مع الأقلام والأحبار إن كنت يئست من أصابعك. كنت فهمت مراد الشيخ وكبرت رقة الملاحظة وأدب التوصيل دون تجريح ولا تأليم.

هــي ذاكرة تتســلل وتبقى، ولهــذه الورقــة عندي معناهــا الخاص ومقامها الخاص، وهكذا تأتي الكتب لتكون مصدراً لربيع الروح ونهراً

مـن الذكريات وكنـزاً من الأنفـاس والعرق والإلهام إضافـة إلى كونها معرفة حية تظل معك وتدفع بك لتحقق معاني وجودك وصيغة حياتك.

٤/ ١٠/ ١٣٨٢هـ

في هذا اليوم المبارك الأغر اتفق
[illegible] انتهاء سنة كاملة
لمصاحبتي الكتب [illegible]
وتمام [illegible] لممارستي الإطلاع
[illegible] الشعري [illegible] أرجو الله
[illegible] على القراءة [illegible]
[illegible] زيادة في [illegible] وأن يرزقني
[illegible] معرفة عامة من [illegible]
[illegible]
[illegible] عشرة ع ٣٠ ح

* مروج الذهب ٢/ ٢٥٧

تقرأ الكتب....؟

إلى الروح الطاهرة: محمد السليم

نتقابل في الشـارع... وكنت قد عدت أدراجي من وسـط السوق بعد أن حصلت على نسخة جديدة من ديوان المتنبي جلبها لي أحد معارفنا الآتين من الرياض، وإذ كنت أسـير متأبطاً كتابي إذا بمحمد السليم يخرج من

الزقــاق الفرعي، ومــن عادتي أن يــراه ويراني في الحــارة وفي المعهد وفي الأسواق ونكتفي بنظرة أو سلام عابر وينتهي الأمر عند ذاك، ولكنه هذه المـرة يديم النظر إلي ويركز على الكتاب المنطوية عليه يدي وكأنه ملتحم بي، ينظر محمد ويعيد النظر ثم يتوقف، ويســألني قبل السلام والكلام: (هل تقرأ كتب...!!)، قالها باللهجة العامية السريعة، فقلت له: نعم.

عندهــا غير محمد وجهته وأخذ يســير معــي، كان ذلك في منتصف عام 1381 (1961) ومن يومها صارت الصحبة وصارت المحبة وصار محمد الصديق الذي ما اهتزت صداقته معي قط.

كان محمد من قراء الكتب المدمنين وكان يعيش هوايته هذه لوحده ولم يكن أحد من زملائه يشاركه الهواية ذاتها وحينما رأى الكتاب معي أدرك أنه قد اكتشف صديقه الذي يحلم به، ولقد كنا حينها نعيش معاً في حارة المســهرية بعنيزة، تلك الحارة التي تضم بيت أستاذنا وشيخنا عبدالرحمن البطحي وكان بيتنا يقع في الوسط بين بيت البطحي وبيت الســليم، وفي هذه الحارة كانت الذكريات التي تجمع مجالس الثقافة في منزل شــيخنا وتجمع حركة مرور من نوع خاص جداً، وهي مرور الكتب فيما بين بيتنا وبيت الســليم حيث صارت الكتب تدور في حركة متصلــة أصبحت معها مكتبتي المنزليــة ومكتبة محمد خزينة واحدة ولم تعد كتب أحد منا محصورة لصاحبها، يأخذ ما ينقصه مني وآخذ ما ينقصني من مكتبته، وإذا فرغ من كتاب أعاده لي ليأخذ غيره مثلما أفعــل تمامــاً، ثم كانت وجهتنا فيما ليس عندنا مــن الكتب إلى المكتبة

السـعودية، وهي مكتبة أنشـأها الوزيـر عبدالله السـليمان وفتحها للعموم، وكنا أنا ومحمد من روادها الدائمين حيث نشأت بيننا منافسة محتدمة في القراءة، وكنت أنظر في دفتر الإعارات في المكتبة وأتابع اسم محمد السـليم لأرى متى اسـتعار الكتاب ومتى أعاده، لكي أقارن بين سرعته في القراءة وسرعتي، وهذا ما شـكل حافـزاً عندي وعنده لكي نطـوي ورقات الكتـب طياً، حتى قرأنـا كتاب الأغانـي ونفح الطيب والنقائض والعقـد الفريد والحيوان وكتب التاريـخ كالكامل والبداية والنهاية في أيام معدودات لكل واحد منها، وكانت لقاءاتنا مناقشات في الكتب وإذا احتاج أحد منا للتغيير إلى السواليف أو إلى الترويح بحث له عن شخص آخر، إذ ما بيني وبين محمد هو الكتب وما في بطونها، ولا نعرف لغير الجد إذا اجتمعنا.

كنـت مـرة في رحلة إلى الطائف في زيـارة لأعمامي صيف 1962 حيث صرفـت هناك كل ما معي مـن ريالات معدودة عـلى شراء الكتب ومن بينها دواوين الشاعر العربي سليمان العيسى ونزار قباني، ولقد أخذت نسختين من كل ديوان للعيسى لي ولمحمد، ثم حينما عدت لعنيزة وجدت محمداً قد سافر من بعدي إلى البحرين مع أحد أقاربه وإذا به قد اشترى أيضاً دواوين سليمان العيسى مكررة له ولي، ولم تك هذه مفاجأة لي ولا له فكل منا يعرف أن هذا ما سـيفعله صاحبه ولا غرابة، وربما تكون الغرابة بل الفاجعة في كل معاني الصداقة لو أن أحدنا لم يفعل هذا.

ظلت الكتـب بيني وبينه وما زالت مكتبتي تختزن نسـخاً من كتب

كانت في الأصل في مكتبة محمد.

تعودت علينا حارة المسهرية تلك الحارة التي لم يبقَ منها في نفوسنا غير صورتها الخيالية، لقد هدموا الحارة وساووها بالأرض، وتركوها برحة مفتوحة لا معالم عليها ولكن صورتها ما زالت حية في نفوسنا إنها حارة محمد وحارة عبدالرحمن البطحي وحارة الذكريات، ومنها كنا نتحرك معا كل صباح متجهين نحو المعهد العلمي مشياً على الأقدام، ومرة قررنا السير نحو الوادي (وادي الرمة) ويبعد عن عنيزة عشرة كيلو مترات، نسيرها على الأقدام، ونمضي في الوادي يوماً كاملاً نتحرك فيه ما بين نخيل خالي محمد ونخيل خالي إبراهيم، ثم نعود في المساء على أقدامنا أيضاً، ولا بد أن حساب ما نمشيه في يوم كذاك سيتجاوز الثلاثين كيلومتراً في مجمله، ولم نكُ نشعر بالتعب، لقد كانت الكتب هي حاملتنا وهي مسافتنا وهي لغتنا.

كان محمد شاعراً، ويأتيه إلهامه الشعري في أوقات مباغتة ومرة كنا نسير متجهين إلى الوادي، وإذا به يتنحى إلى طرف الطريق ويأخذه الهاجس الشعري وفي خلال ساعة واحدة خرج بقصيدة تجاوزت الثمانين بيتاً، كانت قصيدة قومية تلتهب عروبة وحساً ووطنية، وبعد أن تحرك مسار أقدامنا أخذ يرددها بصوت تشهد عليه شعاب الوادي وسحنات الأرض وكنت أقول له ارفع صوتك فلربما سرى الصوت حتى ليصل إلى سليمان العيسى في دمشق ليعرف أن في بطن وادي الرمة شباباً يقرؤون دواوينه ويقولون شعراً مثل شعره وينتفضون عروبة

ووطنية مثل وطنيته.

كانت القصائد تأتي على لسان محمد وكأنها مطر يتدفق لا يرده حاجز ولا تقف في وجهه معوقات، ولكن محمداً ترك الشعر بعد ذلك واتجه لدراسة الحقوق والقانون، وسافر إلى دمشق في منتصف الستينات للدراسة في كلية الحقوق هناك، وكان يأمل أن يرى حبيبنا كلنا سليمان العيسى هناك، وكم كانت صدمته عنيفة حينما اكتشف أن شاعرنا لم يعد هناك، وهذه هي أول كلمة قالها لي في أول رسالة يرسلها إلي: (صديقنا ليس هنا)، وقد كان يعرف أنني كنت أغبطه على تلك الفرصة غير أنها فرصة لم تتحقق.

ظل محمد محباً للشعر ومخلصاً للعروبة والوطنية حتى وقد ترك كتابة الشعر وقوله، وظلت صداقتنا عامرة مثلما ظلت مكتبة كل واحد منا تحت تصرف الآخر.

ظل كل شيء جميلاً وسعيداً... حتى جاءتني مكالمة من أخي علي، وكنت في بيتي مرتاحاً وعلى وشك أن أنام عند التاسعة مساء، وإذا بالهاتف يأتي ليقول لي: هل تعلم عن محمد السليم....؟

خفت من السؤال وأحسست بجفاف في ريقي حتى تعثرت كلماتي، وهنا سمعت صوت أخي يقول: رحمه الله....!

راح محمد.... انتقل إلى ربه وتعود تلك النفس الطاهرة إلى بارئها راضية مرضية.

ضاعت الكلمات، وأكملها أخي علي قائلاً سأمر عليك غداً عند

التاسعة ونذهب إلى عنيزة للصلاة عليه، سمعت كلمات أخي بصعوبة حتى لم أستطع أن أرد عليه بنعم، ولم أرد عليه وهو يسألني إن كان هذا التوقيت مناسباً لي أم لا.

ذهبت إلى هناك حيث كانت الصلاة في جامع الشيخ العثيمين كنت أصلي على جنازة محمد وكنت أحس بوالدي وبوالدتي وبالشيخ السعدي والشيخ العثيمين، تلك وجوه جمعها هذا الجامع، تذكرت نفسي وأنا صغير بجانب والدي في صلاة الجمعة وتذكرت آخر صلاة لي في هذا الجامع وقد كانت صلاتي على والدتي وها هو محمد معهم في رحلة الخلد والنقاء. رحمة الله على الجميع.

في هذا الجامع الذي تفتقت أذهاننا فيه على صوت الشيخ السعدي، وكم كان محمد يحب ذلك الشيخ وحينما كان محمد طفلاً كان وجه الشيخ أكثر الوجوه تقلباً في ضميره، وكان يقول لي بعد أن كبرنا معاً كيف كان للشيخ معنى خاص عنده، معنى من صنع الطفولة وتهيآتها العميقة، وهاهو محمد يودعنا في محراب الشيخ وفي مسجده وهاهو يدفن في عنيزة مختلطاً بطينها ومائها وعروق نخيلها.

رحمك الله أيها الحبيب. وأنت الباقي في القلب لا تزول.

كتاب على كتاب

من أعرق الأصول العلمية هو القول على القول، وذلك حينما يأتي رأي أو قول لمجتهد فيثير ذلك شهية المعاصرين واللاحقين على شرح

هـذا القول أو تأويله أو معارضته، وهذا باب علمي عريض تأسست عليه المعرفة البشرية عبر التراكم والتتابع وتلك هي الشجرة العلمية البشرية، وكتب التراث تشهد على هذه التفاعلية الحية، وكثيراً ما ترى الكتاب الأصل قد تفرع إلى كتب عبر الحواشي التي لا تقف عند حد إذ يتبع الحاشية حاشية أخرى، أي حاشية على الحاشية، وتنطلق من المتن الأصل لمؤلف معين إلى شرح يقوم به تابع له ثم يأتي من يضع حاشية على المتن والشرح معاً، وقد تجد من يضع حاشية على حاشية، وربما اكتشف أحد هؤلاء أنه قد وضع كتاباً أكثر اتساعاً وإحاطة من الأصل كما جرى مع كتاب القاموس للفيروزبادي حث هم الزبيدي بشرحه ووضع حاشية تحت نية شرح القاموس فإذا به ينتهي إلى كتاب ضخم سماه (تاج العروس) وصار هذا معجماً لغوياً قائماً بذاته، وهو في الأصل حاشية وشرح للمتن الأول.

ولقد حدثت لي تجربة حية ومباشرة مع هذه العملية العلمية الحية وذلك في مجلس الدرس مع الشيخ محمد العثيمين -رحمه الله- وعندي وبخط يدي شروحات له كان يمليها علينا على متون الكتب، ومنها شروحات له على كتاب (شرح ابن عقيل) في النحو، وكان يدرسنا النحو في السنة الثالثة المتوسطة، والمقرر هو شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، وفي مطلع العام وزعوا علينا الجزء الأول من الكتاب وهو متن ضخم يغطي أهم المداخل النحوية، وكان الكتاب مغلفاً بغلاف ورقي، ومن حرص الشيخ على الكتاب وعلى مستقبلنا مع ما في الكتاب من علم

وما يخططه الشيخ من نية في الشروحات والتعليقات، فقد قام بجمع الكتب من أيدينا ثم أرسلها مع أحد من يثق بهم إلى الرياض وذلك من أجل تجليدها، وقد جلسنا ندرس لمدة أسبوعين من دون كتب انتظاراً لعودة كتبنا من الرياض بعد تجليدها، ولقد نبهنا الشيخ إلى كتابة اسم كل واحد منا على كتابه حتى لا تختلط النسخ بعد عودتها مجلدة من الرياض، وهذا ما صار ومازلت أحتفظ بالكتاب مجلداً وعليه اسمي وتاريخ تسلمي للكتاب (1382 / 1962) وفي داخل الصفحات كانت تعليقات الشيخ التي كان يمليها علينا ونحن نكتب، وما زلت أرجع إليها كلما احتجت إلى فك أسرار مسألة لغوية أو نحوية، وكان من فضل الشيخ علينا أنه رجل جاد ومهيب حتى لم نكن نجرؤ على العبث في الفصل حين حضوره، بل إنك ليصعب عليك أن تنطلق في الهواجيس أو الغفلة عند الدرس فهو -رحمه الله- على درجة من التيقظ والتنبه حتى ليلاحظك فيما لو سهوت أو سرحت ويحتال حينها بحيلة تعيدك إلى الانتباه وذلك بأن يطرح عليك سؤالاً مفاجئاً أو أن يركز نظره عليك، وهذا ما جعلنا على حال من الحضور الذهني التام معه، ولقد كان النظام الدراسي في تلك الفترة أننا ندرس عاماً دراسياً كاملاً دون امتحانات شهرية ولا نصفية، وعندنا امتحان واحد في نهاية العام، ومن ديدننا أننا نهمل في المراجعة ولا نشرع في المذاكرة إلا حين اقتراب موعد الامتحان بشهر تقريباً، وهو الشهر الوحيد في السنة كلها الذي نتعامل فيه مع المقررات مذاكرة وتمعناً للتجهيز ليوم الحسم، وهنا

أذكر أنني اســتبعدت درســين مــن مذاكرتي أحدهما مــادة العروض، حيــث إنني أتقنت البحور الشــعرية والأوزان من أول درس عرفت فيه فك لغز الإيقاعات الشعرية بسبب مهارة عند أستاذنا عبدالله الحسن البريكان -رحمه الله- في إيصال رسالة الخليل بن أحمد لنا حول موازين الشعر، أما المادة الثانية فكانت مادة النحو وشرح ابن عقيل على ألفية ابــن مالك، وما كنت بحاجــة لمذاكرتها وما كنت خائفــاً من الامتحان فيها، مع صعوبتها الكبرى خاصة على ســن فتيان في الخامسة عشرة من أعمارهم، وذلك لأن طريقة الشــيخ في التدريس وفي جدية التعامل كانت قد ثبتت المواضيع في نفوســنا، وما زلــت أتذكر الكلمات وأرى في ذاكرتي البصرية الصفحات واللفتات، حتى بعد مرور خمســين عاماً على مجلس الدرس مع الشــيخ، وهذا الكتاب الذي درســناه في المرحلة المتوســطة تحــول الآن ليكون مادة تخصصية جامعيــة ويرى الطلبة اليوم أنه صعب ومعقــد. لقد صرت أعود بذاكرتي لتلك الأيام وأتعجب فعلاً كيف كنا نتحمل كل ذلك الكم من المعرفة التخصصية ومع أستاذ مهيب بحجم الشيخ ومقامه، ومثل شيخنا العثيمين كان شيخنا علي الزامــل -رحمه الله- وهو رجل وصفه عارفــوه بأنه أنحى أهل زمانه وذلك لشــدة تبحره في النحو واللغة، إضافة إلى علمه الشرعي وثقافته الواســعة حتى في علم العروض، وكنت أجلس في مجلسه في العصريات وأنهــل من علمه اللغوي والشرعي، أما في المعهد فكان يدرســنا أصول التفسير، إضافة إلى التفسير، ويتبع أسلوب الرواد من أهل العلم بإملاء

شروحاتــه وملاحظاتــه على المــادة، وشروحاته عندي لمـا تزل، ومنها نهلـت وما زلت أنهل علماً عظيماً وفقهاً عميقاً في تفكيك المصطلحات والمفاهيم.

وفي آخـر سـنة لنـا في المعهد كان موعدنـا مع مادة (أصـول الفقه) ومع الشــيخ العثيمــين، وهذه مادة كانـت من أحب المـواد إلى نفسي، ومنها ومن الشـيخ تعلمت أصول المعرفة وزادت فتنتي بالمصطلحات والنظريـات والمفاهيم منذ ذلك الزمـن، وكان الكتاب المقرر هو كتاب (شرح الورقـات في أصـول الفقـه) لأبي المعـالي الجوينـي، وهو إمام شـافعي ألف هذا الكتاب المعمق والمكثـف وهو ورقات من حيث العدد ولكنـه كنز معـرفي عميق شـغل من جاء بعـده، وأولهم جـلال الدين المحلي وهو عالم شــافعي آخر شرح الورقات، وكان من حســن تدبير رئاســة المعاهــد العلمية أن قررت علينا هذا الكتــاب الكنز ثم صار لنا حظ عظيم حيث درســناه على يد شــيخ محب للمصطلحات ومفتون بالأصـول المعرفية ولغة المفاهيم، وهنا كان الشــيخ محمد يشرح لنا ويملي علينا تعليقاته، ولن أنسى أبداً درسه الأول عن مفهوم (التقليد) وكيــف تبحر في هذه المفردة لغوياً من وضــع القلادة على العنق، وراح يطيل في هذه القضية حتى صرت أتبين عملياً كيف هي حال الشخص إذا كان مقلداً وكأنما يقاد بالحبل مثل الدابة.

أخــذ المعنى اللغوي من نفسي مأخذاً حساســاً جـداً، وظللت أتصور القلادة في الرقبة، ولم يتركني الشيخ مع خيالي هذا حتى شرع في كشف

المعانـي الاصطلاحية للتقليد، وهو يأتي بتفسـيرين للمعنى أحدهما: هـو قول الرأي بلا حجـة، والثاني: قبول قول القائل وأنت لا تدري من أين قاله ولا تعلم مأخذه في ذلك.

كان الشيخ يقول لنا هذا ويفعله معنا عملياً، ولذلك فإن ديدن الدرس عنـده أن تقول الأفـكار على الدليـل والبرهنة، ونقـف وقفات طويلة وممتدة على الأسـئلة ومتابعة السؤال بالسؤال حتى نستنفد كل ما في طاقتنا من المحاجة والتسـاؤل، ولم يكن الشيخ يتردد في إيقاف أحدنا مدة من الزمن والشيخ يطرح عليك السؤال من بعد السؤال وأنت واقف بين زملائك وهم جلوس ورأسك يدور بك ولسانك يلاحق الإجابات التي يفندها الشيخ واحدة بعد أخرى ليعود بك إلى نقطة البداية، وإذا احترت واحتار من معك في القاعة تكلم الشـيخ، وقد يشفي غليلك من نفسك حينما يكشف لك أن المسألة هذه لا جواب عليها، أو أنها تحمل أجوبة متعددة أو أنها مما توقف عنها العلماء، من مثل مسـألة (التعارض) بين مسألتين، وبأيهما نأخذ، وفيها أربع مراتب -كما أملى علينا الشيخ مـن بعد حـوار طويل وكنـت أنا موضـع التجربة في تلك المسـألة ولذا رسخت في ذهني بعد أن أوقفني ساعة في النقاش من بين كل زملائي- والمراتب الأربع المسجلة عندي على ورقي وبإملاء الشيخ هي:

1 - الجمع بينهما إن أمكن.

2 - أن نعمل بالمتأخر إذا لم يمكن الجمع وعلمنا بالتاريخ.

3 - أن نعمل بالراجح إذا لم يمكن الجمع ولم نعلم التاريخ.

4 - التوقف.

ولقد كانت المسألة التي طرحها علي تستدعي المرتبة الرابعة، وكان الشيخ في ذلك يحاول تدريبنا على المواضعة العلمية في خوض تجربة الأسئلة ومعاينة كافة الاحتمالات الدلالية والاستنتاجية.

هذه كلها تجربة حية عشتها مع شيوخ أجلاء في ممارسة الفعالية العلمية وبناء الهرم العلمي، أو ما سميته هنا بالكتاب على الكتاب، والقول على القول.

وأخيراً أشير أن الشيخ -رحمه الله- قد أخرج بعد ذلك كتاباً وافياً بشرح نظم الورقات في أصول الفقه، حوى المسائل الأصولية كلها، ولكنني ظللت وفياً لكتابي الخاص وعليه تعليقات بقلمي من إملاء الشيخ، وأحسها تحمل عرق جبيني وأنفاس حياتي وتعيدنا إلى سني الطلب في المعهد العلمي وتحديداً عام 1964 حيث كان الدرس وكانت السنة النهائية في المعهد قبل النقلة إلى الرياض في كلية اللغة العربية. وعلى مدى السنين ظل الكتاب يصحبني ويرفدني معرفياً ونظرياً، في علم هو من أعظم علوم التفكير المعرفي والمنهجي، وأنا مدين في وعيي النظري لهذا التأسيس المبكر في حياتي.

شيمته الكتب

كنا في الثامن من مارس 1972 حيث خرجنا معاً أنا ومحمد الهدلق من المكتبة المركزية في جامعة أدنبرة / أسكوتلاندا، وكانت الساعة

الثانيـة عشرة ظهراً حيث هـو وقت الغداء والراحة لمدة سـاعة حتى الواحدة، ولكن محمد الهدلق تلك المرة لم يكن في خطته غداء ولا قهوة، وقد علم بالأمس عن مكتبة تجارية تبيع الكتب المسـتعملة وذكرها لي فقررنا معاً أن نسـتغل سـاعة الراحة هذه بزيارة لتلك المكتبة، وهناك وجد كل واحد منا بعض ضالته حيث تسللت أيدينا وسط رفوف الكتب القديمـة ما بين مسرحيات شكسـبير وروايات ديكنـز وأعمال ديفيد هيوم، ولهذا الفيلسوف نكهة خاصة في مدينة أدنبرة فهو أسكتلندي، وتحمل إحدى بنايات الجامعة اسمه: برج هيوم، وبه وبغيره تكدست أيدينا كتباً ومعها حماس رفيع في نفوسـنا، كيف لا، وهي كتب مهمة جداً وبطبعات عريقة وتاريخية، وفي الوقت ذاته هي رخيصة، وستعمر مكتباتنـا الخاصـة بهذا المهـم والرخيـص، ولم أنـس منظرنا ونحن عائـدان من رحلـة المعرفة تلك، ومحمد الهدلق يمسـك بيده كتاباً من هذه الكتب وهو يسـير على طرف الرصيف، ويفحص سعره الذي كان مجرد (بنسات) ولم يصل حتى لربع جنيه، ولم يفته أن يقول لي: انظر لهذا السـعر ولهذا الكتاب، ولهذا ولـذاك، ويعرض الكتب واحداً واحداً، ثم يقول: إن الواحد منها بسعر كوب من القهوة، وماذا لو أننا اشترينا قهـوة بدلاً عن الكتاب، ولا ينسى محمد هنا أن يقارن بين مصير كوب القهوة بعد استهلاكه حيث سينتهي عبر مسارب الصرف الصحي بعد دقائـق من شربه، مقارنة بالكتاب ومصيره عبر سراديب الدماغ حيث لا يذوب ولا يتسرب.

كنت أتماها معه وأقول له: نعم، نعم، مدركاً أنني أنا وهو كنا نلاعب أنفسنا ونسليها عن ساعة راحة أهدرناها ولم نتغدَ ولم نحتسِ قهوتنا، وعدنا إلى عملنا في المكتبة المركزية، وواصلنا الجد بالجد والكتاب بالكتاب.

أتذكر تلك الرحلة بتاريخها المسجل على صفحات الكتب التي اشتريتها يومها، وما تزال مكتبتي معمورة بتلك الكتب الإنجليزية التي جمعتها من مكتبات بريطانيا بطبعات قديمة، بعضها صار الآن نادراً وتراثياً، وهي كلها ترتبط عندي بصورة الهدلق وذاكرته عندي. ولقد رددت له الرحلة تلك برحلة مثيلة لها بعد أن تفرقت بنا الديار حيث انتقلت أنا إلى إكستر (جنوب غرب بريطانيا) وجاء محمد لزيارتنا نازلاً من الشمال إلينا، وأخذته يومها إلى مكتبة تبيع الكتب القديمة والمستعملة (العين بالعين حيث قصاصنا بالكتب) وراح محمد يشتري منها بنهم نعرفه عنه في حبه للكتب وحرصه عليها، ولن أنسى الرجل الإنجليزي، صاحب المكتبة، حينما سألني بعد شهر من تلك الزيارة: أين صديقك، ولم يعلم أن الهدلق قد جاء لزيارة سريعة وأنه يدرس في الشمال في أدنبره، إنها بعيدة بعيدة، وهذه هي كلمة صاحب المكتبة حينما سمع قولي عن الهدلق وأدنبره، وهكذا هو الهدلق رجل تتذكره الكتب ويسأل عنه أصحاب المكتبات، وإن كان هذا حدث لنا معاً في مطلع السبعينات من القرن الماضي أثناء بعثتنا في بريطانيا إلا أن علاقتي بمحمد قد ابتدأت قبل ذلك بعشر سنوات، وعلى التحديد عام

1385 / 1965، وهي أول سنة لي في الرياض في كلية اللغة العربية وقد سبقني محمد إليها بثلاث سنوات، ولكنه كان صديقاً لابن خالتي منذ زمنهما معاً في شـقراء، وقد جـاء إلى زيارتنا في منزلنـا الطلابي، ومن أول لحظـة لقاء بدأ بيننا نقـاش في الكتب والثقافة، وكنت حينها أقرأ في ثلاثيـة نجيب محفوظ، وكانت أحداث الروايات تتدفق على لسـاني بين زملاء السـكن، وهذا ما فتح باباً للكلام مع الهدلق الذي كشف لنا وقتهـا عن ثقافتـه وبصيرته في الكتب والأدب، ومـع قراءتي لمحفوظ وقتهـا وتماهـي الهدلـق في الحديـث عنه وعـن العقـاد وزكي نجيب محمود، فإنه قد لاحظ أنني أشـتكي من دمـوع في عيوني، ولما أبلغته أنني راجعت الدكتور الخولي، بادر محمد وقال بلهجة مصرية متقنة: عنـدك تراخوما، عـاوز عملية، وقد تعجبت من تقليـده للكلام ثم من كشـفه ما قاله لي الطبيب، مما جعلني أسـأله عما إذا كان حاضراً في العيادة حينما كشـف علـي الطبيب، فقال لا، ولكن هـذا هو ما يجده الناس عند ذلك الطبيب، وعيادته جنوب البطحاء مسرح لهذا كله، تلك لحظة ظلت بصورها الجاد منها والهازل تمثل لي صورة محمد الهدلق المسـتمرة معـي، فهو رجل من أشـد النـاس وأقواهم جديـة وصدقاً وحرصاً، وفي الوقت ذاته هو إنسان ظريف ومتحدث مرن ومزاح عميق المعنى وراسخ الرؤية.

عرفـت محمد الهدلق على مدى خمسـة وأربعين عامـاً، وعرفه عدد غيري من زملاء البعثة في بريطانيا، وخبرته أنا على مدى هذه السـنين

كلها، وكان أحســن ما في الأحسن الشيم -باســتعارة كلمات المتنبي- وشــيمة الهدلق هــي الكتاب والكتــب، وما مر علي يــوم احتجت فيه لكتــاب لا أجده في مكتبتــي إلا وجدته عند الهدلق، ولا أحتاج إلا لمكالمة هاتفيــه قصيرة ويأتينــي الكتاب إلى حــدي، ولذا فإن مكتبــة الهدلق الخاصة صارت عندي امتداداً مكانيــاً ومعرفياً لمكتبتي، وأخص بذلك كتــب التراث، واســم محمــد الهدلق يتــوج كلمات الشــكر في عدد من كتبي، وصورته الذهنية وجرس اســمه يرن في ذاكرتي كواحد من أعز من عرفــت وأصدق من زاملت وقــف بوفاء بجانبــي وجوانب الزملاء كلهــم، فهو همزة الوصل في قصصنا كلها، وهو الذي يجمع صفحات الذكريات كلها بأنواعها كلها المازح الهازل منها والجاد الصارم.

كنت أقول له -وما أزال- إنك يا محمد تجني على نفســك وعلى العلم والأكاديميــة حينما تتقاعس عن جمع بحوثك في كتب تبوبها حســب انتظام البحوث، وكان يرد علي قابلاً ومصادقاً على قولي، وظل وفياً لهذا الجواب على مدى ســنوات ومازال وفياً في جوابه وأنا وفيٌّ في ملاحظتي، ولكــن: لا كتب، ولا اســم لمحمد الهدلق على أي كتــاب مطبوع، وتظل بحوثه حبيسة الدوريات والمجلات العلمية، ويظل هو وفياً ومخلصاً في تكرار الجواب كلما كررت أنا التســاؤل. ولكنني أقول إن محمد الهدلق لو طبع بحوثه في كتب لصارت كتبه مراجع من أهم مراجع الجامعات العربية في مجال التراث النقــدي، وهو مرجع علمي موثوق ومعتبر في موضــوع النقد العربي القديم، وليته يتــم معروفه مع العلم والثقافة

ويحســم أمره ويطبع كتبه. ألا تفعل يا محمد وأرجو أن تكرم محبتي لك وتقديري لك بقبول طلبي هذا وتحقيق وعدك الذي ظللت وفياً له.

وكــم كنــت أرى محمد الهدلـق وكأنما هــو الوجه الآخــر لي، الوجه المغاير، وليس هذا بمعنى النقيض ولا بمعنى السالب، ولكنه الصورة المعاكســة، أي أنني أنا رجل مندفع لا تهمني حسابات الخطوة وأقول فكرتي بلا تحفظ ولا تحســب، بينما هو رجل دقيق ومدقق في خطوه وفي نظرتــه، وهذا ما يجعلني أشــعر دائماً بحاجتــي لرأيه لأجعل من مشورته صمام ضبط ووزن لحركتي، وأنا الرجل الذي ديدنه المغامرة والاقتحــام وصاحبي ديدنه الحكمة والــتروي، ومن هاتين الخصلتين المتغايرتين، ولا أقول المتناقضتين، نشأت حالة من الثقة في نفسي تجاه صاحبي، خاصة أنه رجل مخلص وصادق ولا يجامل في رأيه ولا يحسد أو يغار أو يبخل، وتلك عوامل تشجيع وإغراء، وفي آخر محاضرة عامة لي في الجامعــة كان محمــد الهدلـق يجلــس في الصفــوف الخلفية من القاعــة، ولم ألحظ هذا ولكن بعض الزملاء ذكروا لي ذلك قبل صعودي إلى المنصــة، ومــا كان ذاك بموضع ســؤال عندي، وصــارت المحاضرة وانتهت وهو لما يزل في موقعه الخلفي، وبعد ذلك بيومين قابلته في ممر الكلية، وحينها بادرني بالثناء على المحاضرة وقال لي إنه كان متخوفاً منها حتى إنه رفض تولي إدارة الجلسة تلك لأن الموضوع عن القبائلية، وخشي من حساسية الموضوع وانفجار الموقف لما في الأمر من محاذير، ولــذا حضر محاذراً ومتخوفاً عــلى صاحبه مما قد يحدث، ولكنه وهو

يقول هـذا راح يثني على المحاضرة ويثني عـلى طريقة العرض حيث رآه يعتمد أسـلوباً موضوعياً محايـداً لا يسيء لأحد، وظل يهنئني على حصافة العرض وحسـن التخلص مما عكس مخاوفه وبدد شكوكه، وجعله يغير رأيه في المحاضرة.

قـال هذا ولم يفتنـي أن اصطاد اللحظة بنكتـة أو نكتتين معه، مع كل مـا في نفسي من تقدير له عـلى وضوحه من جهة وعلى صدقه مع نفسـه من جهة أخرى، حيث لم يجامل الصداقة على حساب الموقف، ثم ختمها بأن ذكر لي قصة رفضه لرئاسة الجلسة، وقال كامل قصته معي ومع المحاضرة ورأيه النهائي فيها.

هذه صورة لمحمد الهدلق الصادق من جهة والصارم من جهة ثانية والواضح من جهة ثالثة، وهو الرجل النقي في قوله وفي تقديمه لنفسه.

ولن أختم حديثي قبل أن أشير إلى أن محمد الهدلق يقف وراء مجيئي إلى جامعـة الملك سـعود، ولولا موقف خاص وشـجاع منه لتعطل أمر انتقـالي إلى الجامعـة، ولم أكـن أعرف أي شيء عن ذلـك، ولم أعرف أن معاملة نقلي قد تعرضت لمؤامرتين كادتا تفسدان الموضوع وأنا غائب هنـاك لا أعلم ما يحدث، ولولا نباهة أبي خالـد وصدق الوقفة منه لما جئـت إلى الرياض وقد أكـون هناك في هولندا أو الإمـارات أو هارفارد، وتلـك قصة لـم أقرر بعـد كشـف كل تفاصيلها، غير أني -فحسـب- أنسـب الفضل لصاحب الفضل، وأشير بالتقدير لدور هذا الرجل الوفي والصادق: محمد الهدلق.

رجل قتلته الكتب

عقل غيرك تضيفه إلى عقلك

عاش الجاحظ في الكتب ومات في الكتب، حيث مات وعلى صدره كتاب، وكانت الكتب قد تساقطت عليه وغمرت أنفاسه وهو مصاب بداء الفالج وهو الداء الذي أعاق جسده ولكن لم يعق حبه للكتب، لم يتزوج الجاحظ ولم يخلف ذرية وليس له عصبة عائلية وقد خرج من عالم الظلمات والتهميش، ولولا علاقته بالكتب لما صار ولا مر على بال أحد. ولكنه ولد وفي فمه وحشة للكتاب، وقد شق طريق حياته كله في بحث أبدي عن الكتاب، وفي مطلع حياته كان يستأجر دكاكين الوراقين في الليل حيث هي مغلقة أصلاً ولا نفع فيها في وقت الليل، إلا أن الجاحظ حول غير النافع إلى نافع، وإذا استغنى التاجر عن دكانه ليلاً فإن الفتى جاحظ العينين سيكتشف طريقة يستثمر فيها هذا الوقت الضائع، وهو إذا استأجر دكان الوراق فإنما ليمضي ليلة كاملة على سراج بسيط يقرأ في الكتب حتى إذا جاء الصباح سلم الدكان لصاحبه ومضى هو لينام بعد أن ترحل ليله كله في صحبة العقول البشرية المسجلة على الورق، ومن هنا جاء تعريفه البارع لهذا النوع من الحياة بقوله: (والأدب هو عقل غيرك تضيفه إلى عقلك).

القراءة عقل مخبوء في كتاب ويتحرك هذا العقل مع تقليب

الصفحات وأنت ترى البشر أمامك على الورق وهم البشر الذين رآهم الجاحظ وأخذ عنهم وتربى عقله عليهم, ولقد كسب الجاحظ عصارة الفكر البشري في زمنه وجاءت ذاكرته متنوعة ومعمورة بلغات الآخرين وكلماتهم ومعانيهم، وعبر هذا الخليط العقلي واللغوي والمعلوماتي جاء الجاحظ ليفيض بهذه البحار ويتدفق بمياهها, وإنك لترى الخليط الثقافي العجيب لدى أبي عثمان بدءاً من موسوعته عن الحيوان إلى معارفه بعلوم العرب وأعرافهم وحياة الأعراب ولهجاتهم وأخبارهم إلى تبحره في (علم الكلام) وريادته لمدرسة كلامية تسمت باسمه، ويحيط بهذا كله ظرف وذهن ثاقب توسل بالاستطراد كحيلة ثقافية لتغليف رسائله الخاصة من تحت المتن الرسمي، فكتب نوادره ورسائله ومبارزاته الكلامية والأدبية وكتب عن البخلاء وقصص الأعراب وحكايات أهل المدن وعجائب البشر، في خليط ثقافي يضم خطابات مزدوجة ما بين المداهن للمؤسسة الرسمية والاجتماعية حيث المتن بوقاره وتحصنه، وما بين الخطاب النقدي الذي يتستر بستر السخرية والنادرة ويأتي وكأنما هو طرفة ونكتة، وهو في صلبه نقد لاذع وتشريح للمؤسسة وفضح لسلطويتها ولا تنقصه الحيلة في ذلك حيث يراوح خطابه النقدي بين النوادر وبين المحاورات المفترضة التي يجريها على ألسنة المهمشين من الجواري والغلمان والسود وكافة أنواع الفئات البشرية من أعراق وثقافات وطبقات، وهي

كلهـا حيـل ثقافية توسـل بها الجاحـظ لعرض سـوءات المجتمع وأنساقه الثقافية بكل تقاطعاتها.

ولقـد كان من أمثال العرب قولهم: كل لسـان إنسـان، وهو مثل تـراه حيـاً في صنيع الجاحظ، حيث اسـتخدم ألسـنة المجتمع كلها للتعبيـر عن مكنونات نفسـه. وإن كان الشـعراء يحتالون بالمجاز الشـعري تحت مفهـوم أن أجمل الشـعر أكذبه وأنهـم يقولون ما لا يفعلـون، وأن قولهم هو قول لا يحاسـبون عليـه؛ فإن الجاحظ توسل بالسـخرية وأسلوب الاسـتطراد لكي يرفع عن كاهله اللوم فيسـوق الطرفة مساق الإطراب والتسـلية مثلما يسوق المحاورات بين الفئات مسـاق التنـدر والتظرف فيمر خطابـه غير مراقب ولا محاسـب مثله مثل المجاز الشـعري، ولكنه في الحقيقة كان يرسل رسـائله الخاصة ويقوم بإيصالها ببيان عميق وتوثيق ثقافي خالد، ولقد صـار القوي والفاعـل من حيث هو ضعيف بـلا عصبة ومن حيث هـو مفرد ووحيد ولكن ذكاءه وسـلاحه الثقـافي فرض لغته ومقولته على الذاكرة الثقافية في تاريخ الفكر العربي كله.

بدأ بالسـخرية من نفسـه فروى أن قوماً ذكروا اسـمه للخليفة المتـوكل ليأخـذه مربياً لبعض ولده وذهب الجاحـظ لإجراء مقابلة لهـذا الغـرض وهنا يـروي قائلاً إن المتـوكل حينما رآني استبشـع منظـري فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفنـي. ومثلها ما رواه عن قصة له مع فتاة حيث يقول: أتتني فتاة وأنا على باب داري فقالت:

لي بـك حاجـة وأريد أن تمـشي معي، فقمت معهـا إلى أن أتت بي إلى صائـغ يهودي وقالت له: مثل هذا وانصرفت. فسـألت الصائغ عن قولهـا فقـال: إنها أتـت إلي بفـص وأمرتني أن أنقـش عليه صورة شيطان، فقلت لها: ياسـتي ما رأيت الشيطان، فأتت بك وقالت ما سمعت.

روى الجاحـظ هـذه القصص عن نفسـه مسـتثمراً بذلك قبحه ليكون سـلاحاً ثقافياً يقاوم به السـلطة الاجتماعية التي تمرست في التهميـش وكان هـو قد جاء مـن قاع التهميش وقـرر أن يعري لغة المجتمع وحيله النسـقية في الإفراد والإلغاء، ولذا وضع الخليفة من جهة والفتاة من جهة أخرى في سـلم ثقافي يكشف عن مجتمع وثقافة تحمل عيوبها الخاصة مثلما تحمل أمجادها، وهو قد وضع الوجهـين معاً حيث كشـف عن لغة العرب بأبهـى صورها البيانية ونافـح عـن مقام الثقافـة العربيـة في مقابل الشـعوبية المحتدمة حينها، وفي الوقت ذاته عـرى عيوب المجتمع العباسي، في تقابل بين كافـة الوجوه الثقافية، وتبعاً لذلك التزاوج بين مسـتويات الثقافة فإنه سـجل مسـتويات الأداء اللغـوي بين البسـطاء والعامة وبين الفصحاء وعلية البلغاء، وكلمة (سـتي) في هذه القصة مفردة تدل على لهجة شـعبية لم يغفلها الجاحظ ورصدها مثل رصده لخطب أهـل البيـان، ولعل عنوان كتابـه (البيان والتبيين) يـدل على هذين البعدين في المستوى اللغوي حيث مصطلح البيان للعلية بينما يشير

التبيين إلى لغة التداول اليومي في تقابل مستمر عند الجاحظ بين المتن حيث المؤسسة الثقافية الرسمية، وبين الاستطراد حيث الثقافة الشعبية، وأول مواد الثقافة الشعبية هي القص الشفاهي ومادته التي يبدؤها بنفسه وبتشريح جسده وشكله وتاريخه ويسحبها لتشمل أعلى رؤوس المؤسسة السياسية والدينية والثقافية.

لقد كان الجاحظ مثالاً للمثقف الحر والناقد المعارض ثقافياً، وعاش بالكتب ومع الكتب، ومات بالكتب.

قتلته الكتب وهو الرجل الذي افتتح كتابه البيان والتبيين مستعيذا بالله من (فتنة الكلام) وكان حريصاً على أن يعيش واقعياً ولا يتعالى على طبقته التي جاء منها ولم ينسَ أبداً أنه من الهامش وأن قبح وجهه ظل معه مذكراً له بماضيه الشعبي وحاملاً لهذه العلامة في علاقته مع المجتمع حتى صار القبح سمة له وتسمى به، حيث كلمة الجاحظ جاءت بسبب جحوظ في عينيه جعلت الناس تسميه بهذا الاسم ولم تكن هذه التسمية منه ولا من أبيه ولكن الناس وسموه بعيبه الخلقي حتى صارت اسماً له وتقبل هو هذه السخرية واتخذها اسماً له ليدين مجتمعه مثلما تقبل نكتة الفتاة عليه وتصرف المتوكل معه ورواهما، لقد حمل هذا الاسم وجعله علامة عليه وعلامة على عنف المجتمع وسخريته، قبل بالعلامة الفارقة اسماً له وعنواناً عليه، وتوسل بها لترقيق مشاعره عن حاله وفي الوقت ذاته وظفها كمنهج نقدي يكشف سيرة المجتمع

مــع المختلف والمخـالف، وعــبر هذا عـاش الجاحظ فــرداً وظل قيمة فردية لا يســتند إلى عصبة ولا يتبع غيره حتى من الناحية الفكرية حيث أســس لمنهجه الخاص وصنع منهجية فكرية دينية تســمت بالجاحظيــة. هو المفكر الذي أضاف عقــول الآخرين إلى عقله ومن هذا تعــددت عقوله وتعددت كتبه وتعددت رؤاه وتنوعت أســاليبه، وسيبقى الجاحظ في ثقافتنا مثالاً حياً على توظيف الكتاب بوصفه عقلاً تفاعلياً، وفي توظيف الشــعبي بوصفه روحاً ثقافية في تزاوج فعال وإيجابي حتى وإن دفع المرء ثمناً غالياً لذلك.

في خدمة الكتاب

إنهــا لمتعــة فاتنة أن تجلس بــين الكتب تراهــا في صور وأحجام وأشكال وألوان وتطل عليك كعوبها بين الرفوف وتحس أنها تتكلم معــك وتنظر إليك وتســتجيب لهواجســك، وفي حياتي تعلمت هذه المتعة ومارستها وما مر يوم إلا وجلست في مكتبتي أتأمل وأسرح النظــر بــين الكتب وقــد تطول الجلســة وأنا أترك نفسي منســابة تقودهــا النظرات يعمها الصمت العميــق والممتد عبر القرون بين الشعراء والكتاب وبين اللغات، ويمر الوقت في هذه الرحلة الخيالية وكأني وسط نسائم التاريخ وهمسات الزمن، وأنا واحد من هؤلاء القابعين وسط الصفحات آخذ وأعطي معهم.

تلك جلســة يومية تعودت نفسي عليها، وعرفتني بها كل مكتبة

عشــت بها، وكم أعطتني هذه من سلوة وعزاء، وكنت في أدنبرة في أســكتلندا وفي إكستر في جنوب غرب بريطانيا أجد بين الكتب راحة وحضنــاً يحتويني ويســتل همومي بــين الدرس البحثي الشــائك والخــوف من المصير المجهول أمام مهمتي الدراســية، وكان أقسى ما يمر بنا حين الدرس هناك هو أن نفشل في دراستنا, وكنا نعرف أشــخاصاً من بعض العرب ممن انتهت ســنوات عنائهم إلى فشل ذريع، ونسمع عن ذلك الذي رفضت الجامعة أطروحته وعن الآخر الــذي أوصى المــشرف بفصلــه، وعــن ذاك الذي أعطوه الماجســتير بــدلاً عن الدكتوراه وكان ذلك في لحظة المناقشــة التي كان يتطلع إلى أن تكــون خاتمة التعــب. ومن الممكن أن تظــل تدرس وتبحث ثماني ســنوات أو أكثر وأنت مســجل على الدكتوراه رسمياً، وبعد هذه الســنوات العجاف يأتي يوم المناقشــة وفيه يجري ما يجري إذ قــد يقرر المناقشــون تقليص شــهادتك إلى الماجســتير إذا رؤوا أن عملــك لا يرقى إلى الدكتوراه، وقد يفرضــون عليك إعادة كتابة الرسالة بمهلة أشهر أو أكثر، وقد يقررون رفض العمل كله، ومع الســلامة... وقد صارت هذه كلها وكانت هذه تنتصب أمام أعيننا على مدى سنيننا كلها، وكان النظام في بريطانيا قاسياً وغير رحيم ولا مجامل، ولعله قد تخفف من كثير من سطوته السابقة الآن.

تلــك هموم كانت تصاحــب كل باحث منــا وكان أمري مثل أمر زملائــي في ذلك الخوف والتوجس الدائم على مدى ســنوات البعثة،

وهــذا الرعب المصاحب لم يكن له من سـلوة غير جلســات التأمل العميق بين الكتب وبين رفوف المكتبة، وأنت في صحبة الأوائل ترى كلماتهم على أغلفة الكتب وتســمع أنفاســهم وكأنها تهدهد على قلبك وتعطيك الســكينة في غربتك وفي وحدتك مع مصيرك المعلق في الغيب.

للكتب فضل علي ليس في تثقيفي -فحسب- وإنما أيضاً في جلب الســعادة إلى قلبي حيث صار منظرها يمثل لي روضة غناء ومتعة مستديمة.

ولهذا فإنني أشعر أن معرض الكتاب وقد استقر موعده ومكانه في الرياض قد أصبح بالنســبة لي أسبوعاً من الربيع المزهر، وصار مــن ديدني أن أذهب في أوقــات الضحى خاصة، وفي بعض الأماسي في تــرددات متكررة كي أضع نفــسي في ضيافة الكتب وبين أنفاس الورق وصفحات الكلمات، وكلما مر بي شــخص وسلم علي أحس أنني وإياه في جنة من جنات الدنيا البهية، ولذا فقد صارت قصص المعرض وأحداثه ذات وقع خاص عندي، ومنها قصتان أراهما من أصدق القصص على صداقة الكتاب.

واحدة منهما تخص الصديق الأســتاذ محمد المحيسن وقد رأيت منه ما جعلني أشعر بالغيرة من رجل ظهر حبه للكتاب بأكبر مما عنــدي، وقــد تفتق ذهنه عن أمر لم يخطر لي عــلى بال، وهذا الأمر يتعلق بحركة البيع عند الناشرين، وكان السؤال الذي نشأ في نفس

محمد هو: ماذا لو أن المشــتري رغب في كتاب قيمته عشرة ريالات ثم قدم ورقة من فئة الخمســمئة، واكتشــف أن الناشر لا يملك ما يرد به فارق المبلغ...؟ وهذا أمر يتكرر فعلاً ولو استمر لتعطلت به المبيعات وانتفى معه معنى المعرض.

لقد صار من ديدن محمد أنه تبرع بوقته وجهده وصار يدور على بنوك الرياض ويصرف منهم مبالغ كبيرة من فئة العشرة ريالات، ثــم يأتي بها في كيس يتأبطه، ويــشرع في توزيعها على الناشرين، خمســة آلاف لهذا وثلاثــة لذاك وأربعــة للثالث، وهكــذا دواليك في جولة يومية تكــررت أمامي، حتى إنني صرت أرقب لحظة دخول محمد إلى القاعة والكيس بيده والابتســامة تعمر وجهه، ثم أنظر إليه وهو يربت على كتف بســام كــردي، صاحب المركز الثقافي وأنا جالس عنده، ويدس في يده خمســة آلاف مــن فئة العشرة، وكنت أرى بسام وهو يتبسم حتى صار بساماً فعلاً، ويلتفت إلي ويقول: لولا هــذه لتعطلنا عن العمل، وينصرف محمد المحيســن وعيوني تتبعه لأراه يمد مبلغاً آخر من كيســه إلى ناشر آخر، وهكذا يتحرك الســوق وتتحرك الكتب ولا أحــد يعلم أن وراء هــذه الحركة رجل لــه من الذكاء والمروءة ما جعله يعرف الحاجة الماســة لهذا العمل دون أن يقال له ذلك، ولقد أمســكت به مرة كي أشكره على العمل الراقي والذكي وقلت له ليتني كنت بمثل حســك هذا، وكيف بي لم أدرك هذه الحاجة وأنا جليس الكتب وصديق المعرض، وراح محمد

يروي لي كم يلاقي من العنت مع البنوك حيث لا يجد عندهم مرونة في التجـاوب مع صرف كميـات كبيرة من العـشرات، ويدخرونها لعملاء لهم من تجار الســوق العام، وقـال لي إنه يتنقل من بنك إلى بنـك يومياً لكي يحصل على مبالغ تكفــي لتغطية حاجة عدد من الناشرين، ولم يكل ولم يمل ولم يتثاقل العمل هذا قط، وهو عمل تطوعي وفيه ذوق رفيع في النباهة والمروءة.

أما المنظر الثاني فهو لسليمان الوايلي، هذا الرجل الفذ في صداقته للكتــاب وأنت تراه يدور كأنما هو صقر يقتنص الكتب ويعرف ما يحسن صيده ويميزه عن غيره، وفي كل معرض من معارض الكتب العربية في كافة عواصم العرب ترى سليمان وهو يقتنص اللحظة ويقتنــص الكتب، ثم يجمعها لنا من كل مكان ويقدمها معروضة لمبتغيهــا، ويعلم الله كم صرت أنا أتجنب ذكر اســم أي كتاب على مسمع ســليمان، لأنني أعرف أنه ســيدخل في دوامة لا يبالي معها بأي مشــقة إلى أن يأتي بالكتاب، ولقد صرت أشــفق عليه حتى لا أريــد أن أتعبه بمزيد على تعبه، إنــه يتعب لكي نرتاح حتى صارت مكتبته بمثابة المعرض الدائم لأجد الكتب ولأندر الكتب.

وهكـذا يأتــي محمـد وســليمان كمثالين عــلى خدمــة الكتاب وكمظهرين من مظاهر معرض الكتاب حيث تتحرك الثقافة بفعل رجال صارت الكتب هماً لهم ومعنى من معانـي العمل عندهم.

هما مثالان حاضران ويكملان تاريخاً عميقاً من ذاكرة كل واحد

منا عن رجال خدموا الكتب وخدموا الثقافة بمحبة وإخلاص، وما من مدينـــة أو قرية إلا وتجد فيها أمثلة عـــلى هذا الصنف العجيب من البشر.

ملحق

لوحات ديريدا والتمركز المنطقي

ـ 1 ـ

كانت اللحظة مثيرة حقاً وذلك هو اليوم الذي انتظره الكثيرون لكي يستمعوا إلى جاك ديريدا يلقي محاضرة في آرفاين في كاليفورنيا، وكنت أغبط صديقي وهو يحدثني عن تلك اللحظة، وهو صديق أمريكي أعرفه منذ سنوات وأعرف متابعته لديريدا، وكنت أتوقع منه أن يحدثني عن انطباعاته الفكرية عن المحاضرة، ولكنه انشغل وأشغلني معه في الحديث عن لغة ديريدا الإنجليزية، وكيف أنه قدم منظراً طريفاً في علاقته مع هذه اللغة، لقد كانت إنجليزية ديريدا ضعيفة جداً، ولم يشفق ديريدا على نفسه من معاناة الحديث بلغة لا تنقاد له بسهولة بدءاً من نطقه لها، وهو نطق تتحكم فيه اللهجة ويبدو عليه التعسف حتى كأنه يستل الكلمات من بطن معجم إنجليزي/فرنسي، ثم إن الكلمات لا تسعفه في كل الوقت فيجد لسانه يعطي الكلمة الفرنسية، وفي بعض الأحيان يستعين برفقاء له لكي يزودوه بالكلمات الإنجليزية التي ظلت تتمرد على تذكره، ويسألهم كل لحظة وأخرى عن المقابل لهذه الكلمة أو تلك.

لقد انشغل صاحبي وانشغلت معه حول هذا المنظر، وتمنيت أن لو كنت

هناك لكـي أرى الحالة أمامي، وهي حالة فعلاً سـتأخذك من الأفكار إلى الطريقـة التي نعبر بها عـن أفكارنا، ولقد أحسسـت أن ديريدا قد تعمد أن يضع نفسـه وجمهوره في هذه التجربة اللغوية الفريدة، حيث سترى فيلسـوف اللغة الذائع الصيت وهو يعاني من اللغة نفسـها، ويعاني من الربـط ما بين لغتـين، وقد عانى من قبـل بين الربط بـين اللفظ والمعنى وشغلته لعبة الربط هذه، ومنها بنى فلسفته كلها، وهو في تلك المحاضرة كان يمتحـن لعبة المعاني ويضع نفسـه نموذجاً لها، وأظنه قد أحسـن صنعاً إذ فعل ذلك، ولقد كان في مقدوره أن يتكلم بالفرنسية، وفي جمهوره عدد غير قليل ممن يفهم الفرنسية، وقد فعلها غيره من قبله، وكان هناك ترجمة لمن لا يعرف الفرنسـية، غير أن ديريدا آثر أن يعاني الفعل اللغوي وأن يضـع نفسـه في لحظة الافـتراق (الاختـلاف) ما بين لغتـين، يعرف إحداهمـا معرفة جيدة بينما يقف على تخـوم الثانية ويأمل في اقتحامها مسـتعيناً ببعض ما يتذكر وببعض صحبه ومراهناً على قدرة سـامعيه على ترميم شقوق الكلام وردع هوة المعاني (أي معاني...!!).

ـ 2 ـ

هل لديريدا أن يتخلى عن اسمه..؟

الاسـم معنى وإذا تكون الاسـم بصفته معنى فإنه ينتكس على صاحبـه بمغبة هذه المعاني، وهذا ما حدث مع جاك ديريدا حينما

نشــأت فكــرة تكريمــه في جامعة كمبريــدج في بريطانيــا، وكانت الفكــرة بأن تمنح الجامعة شــهادة الدكتــوراه الفخرية له، وهنا جاء الســؤال: من هــو (أو ما هو) جاك ديريدا، والجواب ســيحدد السبب في منحه الدكتوراه الفخرية.

العجيــب هنــا أن للجامعة ســجلاً طويلاً في المنــح التكريمية في الدكتوراه، وفي الســجل أســماء كثيرة بعضها لتجار ولعسكريين، مثلما أن بعضها لعلمــاء ومفكرين، ولم يحدث في تاريخ الجامعة قط أن صار الاســم معضلة، ولم يحدث أن سأل سائل في الجامعة عن اسم شخصية مكرمة، وكيف تكرم من تتساءل عن اسمه...؟.

ولكن اســم جاك ديريدا جاء ليكون معضلــة إدارية وأكاديمية، ولــذا رفض قســم الفلســفة في الجامعة تبني الترشــيح بحجة أن ديريدا ليس فيلســوفاً وأنه باحــث لغوي واقترحوا إحالة الموضوع إلى قســم اللغويات لدعم الترشــيح، ولكن هذا القسم رد الموضوع مبرراً موقفه بأن الرجل ليس لغوياً ولا ألســنياً، وهنا بدأت مغبات المعنى تطارد الاســم وتحاصره، وهل هو اســم قابل للتحديد وهل المعنى هنا متفق عليه أم هو أحد صور المفارقة والاختلاف....؟؟

لقد وقع فيلســوف الاختــلاف في مغبة اختلافه، ووقع في مصيدة التمركــز المنطقــي، حيث لا يتطابق مع حدود وأعراف المؤسســة، وهذا الذي كشــف النســقية الثقافية في التمركز المنطقي، وكشف ســلطة المعنى ووهميته في آن، هاهو في جامعة كمبريدج العريقة

والعتيـدة يقع تحـت مطرقة المركزيـة المنطقيـة ومطرقة المعنى الواحد والنسق المحدد.

احتاجـت الجامعـة إلى طـرح موضـوع منـح ديريـدا شـهادة الدكتـوراه الفخرية للتصويت، وفازت الفكرة بفارق صوت واحد، وهــذا أمر يحدث لأول مرة في تاريــخ الجامعة ذات الثمانية قرون، ولأول مرة يجري بحث أمر كهذا في مجلس الجامعة بدلاً من تبنيه من أحد الأقســام المتخصصة، ولكن لا أحد في الدكاكين الأكاديمية يســتطيع تجرع اســم ديريدا ولقد غصت به الحلوق حتى لم يجد من ينسبه إليه أو ينتسب له.

إنه فيلســوف الاختلاف، وهو صاحب اللغة المختلفة، وســيقول بعــض الناس إنه عظيم لم يجد التاريخ بمثله من قبل، وســيقول آخــرون إنــه مهرج، وفكــره ليس فلســفة وليس لغــة، فماذا هو إذن....؟

ـ 3 ـ

يكمن إشكال ديريدا مع نفسه ومع مشروعه (ولم أقل مع فكره لكيلا أقع في المحذور المعرفي هنا) يكمن الإشكال في كون ديريدا يبدأ نظرته للأشــياء عبر رفض المعنى المؤسســاتي، ولكن كل معنى في الكون هو معنى مؤسساتي بالضرورة، ومن هنا صار ديريدا ضد المؤسسة صانعة المعاني، ولم يكن غريباً على كمبريدج أن تتوجس

منــه، لأنها فهمت فكرته على وجهها العميق، وهل ســتمنح صك التميز لرجل يلغيك ويساءل منجزك الفلسفي كله...؟.

إنــه يلغيك وكفى، ولكي تبقى لا بد أن تلغي من ألغاك. هذه هي لغة السياسة وهي لغة الاقتصاد، وسنقول إنها لغة الثقافة أيضاً، وتاريخ الفكر كله يشهد على ذلك.

لا شــك أن من يقــرأ هذا الكلام ســيتوقع من ديريــدا أن يرفض الدكتــوراه الفخرية من كمبريدج لأنها شــهادة المركزية المنطقية وشهادة في المعنى المؤسســاتي غير الاختلافي، ولقد رفض سارتر من قبل جائزة نوبل بعد أن منحت له، لأنه كان مؤمناً بفكره اليساري المعادي للرأسمالية بكل صيغها. ولكن ديريدا قبل الشهادة وغض الطرف عن صراعات الجامعة حوله.

هــل يقول لنا هذا إن فيلســوف الاختلاف جنح للســلم والمهادنة المؤسســاتية ونظر إلى الأمر وكأنه يحمل مصلحة شخصية، وبرره بأن ما جرى هو إدانة للمؤسســة وكشف لها، وأن أي اعتراف من الجامعة بفيلســوف الاختلاف هو تفكيك لها لأنها قبلت بنقيضها ومقوضها...؟!

لا أعــرف ردة فعــل ديريدا على الأمر ولكنني أتصــور أن تأويل ما حدث يأخذني لهذه الأبعاد...!.

من المشــهود عليه في تاريخ الثقافة أن المرء لا يرى عيوبه، حتى وإن كان فيلســوف العيوب وكاشف عيوب اللغة والمنطق. ولا شك

أن ديريدا قد وقع في لحن ثقافي حينما خضع للعبة المؤسسة ورضي بورقة تشهد له بنقيض ذاته، وهي شهادة فخرية ربما يجدها ورثة ديريدا معلقة في جدار مكتبه وعليها خاتم الجامعة. وهنا يشهد التاريخ بأن رجل الاختلاف قد تم تعميده وتمت مأسسته بمؤامرة ماكرة من المؤسسة وتمرير من الرجل ضد مشروعه حتى صار أحد المعاني ولم يبق كأحد الاختلافات.

لقد روي عن أحد الوعاظ أنه قال لأتباعه اتعظوا بقولي ولا تنظروا إلى عملي، وذلك حينما أحرجه بعضهم وسأله: كيف به يعمل خلاف ما يقول ويرتكب بعض الآثام في حين ينهى الناس عنها.

هل نقول إن ديريدا وقع بشيء من هذا أيضاً، وهل لنا أن نقول إننا نختلف عن هذا وذاك حينما ننتقد تصرفات المختلفين مع أنفسهم، ألسنا نحن مثلهم وأننا لا نرى عيوبنا مثلهم...؟!.

الملحوظ أن الثقافة -أي ثقافة- تصطنع أنساقها الخاصة على مر العصور، وأننا نحن كصنائع ثقافية نعيش في حال مزدوجة من الوعي الثقافي والعمى الثقافي معاً، حيث نستطيع أن نحصل على درجة من الوعي الفكري والفلسفي حتى لنرى عيوب الثقافة ونمتلك الجرأة المعنوية على كشفها وفضحها، ولكننا في الوقت ذاته نخضع لشيء من العمى الثقافي يصاحب الوعي ويختبئ من تحته ويلف عليه، وهذا العمى الثقافي يجعلنا كائنات بشرية

مسـخرة ومصطنعة في الوقت الذي نحن فيـه مفكرون وناقدون ومنفتحون، وسـنقول الشيء ونقيضه وسـنفعل الضد مع الضد. وسـنرى المرء ديموقراطياً ودكتاتورياً في آن وإنسـانياً واستبدادياً في آن.

هـذا درس أليـم في سـيرة البشر نتعلمـه لكي نعـرف أن طريق الكشـف البشري طويـل جداً، وطريـق المعرفة هو نفسـه طريق الآلام، وحربنـا مع الأنسـاق هي حرب عويصـة، وكل نقد نوجهه للنسق لا بد أننا نحن -نقاد النسق- قد وقعنا أو سنقع فيه، أو في الأقل هو موعد يتربص بنا، وسيهزمنا في لحظة ما.

خبايا الحداثة (حداثات...؟؟)

(إني لأستحي من الله أن أخشى معه أحداً)

إسماعيل الأشدق

مـن حـق الإخـوة في قناة (دليـل) أن أقـول إنني سـعدت بلقائي عندهـم، يوم الجمعة مـا قبل الماضي، وما مقالتـي اليوم إلا امتداد لذلك اللقاء السـعيد حقاً، وحينما تداخل الشيخ عوض القرني قال كلاماً كثيراً من بينه أنه طلب مني كشـف خبايا الحداثة مما أعلمه ولا يعلمه -حسـب عبارتـه- والحق أنني كنت كحـال من قال عنه المتنبـي: إذا حسـن فعل المرء حسـنت ظنونه (طبعـاً المتنبي قالها حسـب قانون دلالـة التضاد، فإذا قال: إذا سـاء فعل المرء سـاءت ظنونه فهو يقول أيضاً: وإذا حسـن الفعل حسـن الظن، وهذا هو مقتضى دلالة التضاد)، وكنت لحظتها قد ظننت أن الشـيخ يندبني إلى نقـد خطاب الحداثـة، وكانت إجابتي بالإحالـة إلى بحثي في نقد الحداثـة العربية بوصفها حداثة رجعية والمثـال على هذه الرجعية هـو أدونيس، وكنت أظنني قد أعطيت صورة عن الجواب الذي مال ظنـي إليه. وانتهى أمـري عند هذا الحد. غير أن اللـوم صار يتواتر علي من ذلك اليوم وما بعده، وقال لي الكثيرون إن الشيخ كان يقصد منك فضح الحداثة والحداثيين وكشـف الخبايا، أي الاعتراف عليهم والتشـهير بهم، وما كنت أظن بالشـيخ هذا الظن، غير أنني وعدت

بعضهـم بالاسـتماع إلى الحلقة مرة أخـرى للتأكد مـن وجاهة ما ذهبوا إليه، وهذا ما حدث فعلاً بعد سماعي للتسجيل، إذ تبين لي أن الشيخ يعتقد أن الحداثة تنظيم خطير له خبايا وينطوي على خطر جسـيم، وتبعاً لهذا الظن فإن الشـيخ يريد مني أن أعمل له كمخبر سري أو كعميل سابق يكشف أسرار العصابة.

كـم والله أود لو أن الشـيخ لم ينزلق إلى هـذا المنزلق الذي ما كنت أتصور قط أن خلقه الكريم سيسـمح له بـه، وأنا أراه رجل مروءة وتقوى، ومن كانت هذه صفته فإنه لن يحقر أخاه إلى حد أن يطلب منه أن يكون مخبراً سرياً أو أن يكون عميلاً سـابقاً تحسن دعوته لكشف الفضائح.

هذه مسألة شخصية تتعلق بنظام التعامل بين البشر وعلاقة ذلك بالظن الكريم والمروءة وحسن التعبير، والكلمة الطيبة صدقة -كما قال رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام- وأنا لن أطيل ملامة أخينا الشيخ وأتركه لمروءته في ذلك.

لكـن الأمر الأهـم والأخطر هـو أن نتكلـم بعقل وصـدق وأمانة عـن قضية لا يصح أبـداً أن نتهاون بها، وهـي: هـل الحداثة تنظيم سري يقـوم عـلى خطط خطـرة، ويجـب حينئذ فضحها وكشـف خباياها...؟؟.

هذا هو منطق الشـيخ وكنـت أظنه قد وعى لغلطتـه القديمة في كتاب (الحداثة في ميزان الإسـلام)، وهو كتـاب في التوهم والظنون

أكثر مما هو موعظة حسنة، وخطايا الكتاب كبيرة وفادحة، ومن أهمها هذا التصور عن تنظيم مزعوم، ويبدو أن الشيخ ما زال يعتقد ذلك ويبحث عمن يساعده على تأكيد هذا الافتراض.

وأبدأ بأربع مقولات هي:

1 - الحداثة حداثات

2 - الحداثة ليست تنظيماً

3 - الحداثة ليست خطراً

4 - لقد انتهت مرحلة الحداثة ونحن الآن في زمن (ما بعد الحداثة).

وللتفصيل أقول -أولاً: الحداثة حداثات، ولكل حداثي تعريفه الخاص، وبقدر ما هنالك من حداثيين فإننا سنجد عدداً مماثلاً من التعريفات والتوجهات، ولو أخذت بودلير كمثال لوجدت أن حداثته حداثة جذرية/راديكالية تقطع مع الماضي بكل صيغه، وفي مقابِلِه إليوت الذي اعتمد أهم ما في الماضي وهو الدين واللغة الكلاسيكية -حسب تعريفه للكلاسيكية-، وعاد جسدياً من أمريكا إلى بريطانيا كتعبير رمزي وحسي على مفهوم الأصل، وللحق فإن أدونيس يقول إن القرآن والحديث النبوي أصلان ويضع الحداثة بصفتها أصلاً من الأصول (انظر بحثي: ما بعد الأدونيسية، في كتابي: تأنيث القصيدة والقارئ المختلف). كما أن أدونيس كتب عن الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وهو الآن يصف كتابه عن الشيخ بأنه الجزء الرابع من مشروعه حول الثابت والمتحول، ولي أن أقول إن الشيخ

عوض لم يشر قط إلى هذه المعلومات عن أدونيس، ولن أجنح لسوء الظن فأقول إنه حجبها متعمداً أو أنه خشي أن تفسد عليه كشفه للسلبيات فقط، وإنما أقول ما أراه ملاحظة منهجية، وهي أن الشيخ لا يعرف بهذه المعلومات لأنه ليس من أهل هذا الحقل وليس له باع فيه فغاب عنه الكثير والكثير من هذا ومن غيره.

وعوداً إلى موضوعنا أقول إنه من الطريف أن السياب كان يصف إليوت بالرجعي العظيم، ولم يكن هذا موقفاً ضد رأيه في الدين ولكنه موقف من الرأسمالية الغربية، وتبنى السياب الشاعرة إديث سيتول كبديل عن إليوت تجنباً لملاحقة رفاقه من الماركسيين الذين يشنعون على إليوت حينها، والشاعرة إديث سيتول هي صاحبة النصوص الدينية والأسطورية العريقة حتى لتكاد نصوصها تكون صيغة من كتب الدين، وكأنها كتاب دين حديث، وعند السياب بعد ديني واضح، وأشد منه نازك الملائكة، وأنت هنا بين بودلير من طرف وإليوت من طرف آخر، وبينهما تنويعات لا تحصى. وهنا أقول إننا أمام حداثات وليست حداثة واحدة، وهذا شرط معرفي ومنهجي لا يصح أي حديث عن الحداثة دون الأخذ به، ومن هنا كان مدخلي على الشيخ عوض ووصفي له بأنه يجهل الحداثة لأنه لا يعي بهذا الشرط المعرفي/المنهجي، ويفضي به هذا النقص إلى إصدار أحكام خاطئة لا تصح عند ذوي المعرفة.

ثانياً: الحداثة ليست تنظيماً، لأن من شرط التنظيم أن يتواطأ

أصحابه على بيان متفق عليه وعلى ولاء لهذا البيان المفترض، وعلى رضا بزعامة وقيادة تؤسس لعصبة بين الأفراد، ووالله إن ما بين الحداثيين من نزاع وتنافس وتصارع ليفوق أي نزاع مر علي في التاريخ كله، ولقد كنت قلت في رسالة لي إلى أحد زملائنا قبل ربع قرن: وسوى الروم خلف ظهرك روم، ومغزاها أن السهام تأتينا من كل الاتجاهات، وكنت حينها -وما زلت- ألاقي من الحداثيين مثل ما ألاقيه من غيرهم، ونحن نعرف مأساة السياب وعذابه بالسجن والملاحقة والتشريد والتربص من قوم سيسميهم الشيخ بعصبة الحداثيين، ولا يسلم حتى من تطلق عليه صفة زعيم الحداثيين وقد وصفني الصديق رضا لاري بهذه الصفة، مثلما تبرع لي صاحب شريط الحداثة بصفات أخرى ابتكرها من معجمه الخاص، وفي مقابل هذه الصفات لم أجد جيشاً ينتظر أوامري، ولم أكن أريد ذلك، وليس هذا في نظامي الفكري أو الخلقي، كما أنه ليس في نطاق الممكن أو المتصور أصلاً، حسب واقع الحال.

وللخلافات تاريخ طويل أشهره ما جرى للشكلانيين الروس حيث تم سحقهم وتصفيتهم في روسيا الشيوعية وبعضهم عذب حتى بترت ساقه ومنهم من نفي إلى سيبيريا، وأجبر بعضهم على الظهور على التلفزيون لإدانة أنفسهم وإعلان براءتهم من الممارسة الألسنية والنقد الشكلاني، وفي فرنسا جرت صراعات عنيفة بين البنيويين والماركسيين، وكانت الماركسية بعامة ترى أن

مدارس النقد الألسني خطر عليها، وامتدت آثار هذا الصراع عربياً وإن كان اليسار العربي أقل قوة منه في موسكو وفرنسا، ولذا كان الصراع على مقدار طاقتهم وجرت ممانعة مضادة للبنيوية والنقد الألسني، ومقالاتي عن أستاذنا المرحوم محمود أمين العالم تعطي مثالاً لذلك (انظر كتابي: الموقف من الحداثة)، ومحلياً بلغت الخصومات حداً وصفني به أحدهم بالخيانة الوطنية، وكان قد ابتدأ بوصفي بالخيانة الثقافية ثم أطبقها بالقول بالخيانة الوطنية، وهو شخص كان يرى نفسه حينها من أتباع أولئك. وقد أبلغني أحد الإخوة من الشرقية أن مؤامرة كانت تحاك ضدي، وقال هذا الشخص إنه منع حدوث ذلك واقترح عليهم التعقل والتريث، وقد رويت هذا في كتابي حكاية الحداثة.

والحرب علينا معشر الألسنيين كانت شرسة على مستوى الأشخاص وعلى مستوى المنابر، وكانت مقولة وسوى الروم خلف ظهرك روم هي أصدق وصف للحال. وهذا شاهد على أنك لست أمام جبهة واحدة متواطئة على أي شيء فيما بينها، ولقد تراوح التصدع ما بين قمع دموي في روسيا وصراع لفظي هائج في فرنسا وممانعة عربية.

ثالثاً: إذا قلنا إن الحداثة حداثات وتبعاً لذلك فإنها لا يمكن عملياً ومنهجياً أن تكون تنظيماً تبعاً لتنوعها من جهة وتصارعها من جهة أخرى، فإننا سنقول بالضرورة المنطقية إنها ليست خطراً

داهمـاً أو متربصـاً، وكيف يأتي خطر -أي خطـر- من قوم تنوعوا حتـى في طريقة اسـتخدامهم للمفردات، ومارسـوا الاختلاف علنياً وتعـددت مشـاربهم وهمومهـم وغاياتهـم، وظلـوا يعلنـون ذلك ويجاهـرون بـه، حتى لم تبقَ مجلة أو مطبوعـة عربية من المغرب إلى البحرين إلا وكان هذا من أبرز أبوابها وأصواتها على مدى سـتين عاماً -وتحديدي هنا مبني على لحظة ظهور السـياب ونازك في عام 1948، وليس 1947، كما أشرت في دراساتي من قبل-.

الحداثـة تيار وليسـت مذهبـاً ولا طريقة ولا مدرسـة، إنها حالة ثقافية تنوعت في أوربا فلسـفياً وسياسـياً واقتصاديـاً ما بين نظم ليبرالية رأسـمالية، وما بين نظم اشـتراكية جذرية أو ديموقراطية، بينمـا انحسرت عربياً في الإبداع الشـعري وانغلقـت فيه، وبه كانت الحداثـة العربيـة حداثـة جزئيـة، ولم تلامـس الأطـر الاجتماعية والتكنولوجية والسياسية، وظلت هذه الأطر تراوح ما بين الاضطرار الواقعي والتحفظ الذهني، ولم يصحبها جهد فكري أو إبداعي -كما حدث في مجال الصيغ الشعرية والنظريات النقدية- وصارت الفجوة بـين الخطابـات فيما بين حداثـة أدبية، وما بـين خطابات أخرى لا تعي ما كان يجري في عالم الأدب والإبداع، وكأننا كنا نحاول الدخول في ماراثـون عالمـي ولكن بقدم واحـدة. هذا عيب حداثتنـا العربية, ولقـد قال بذلك أناس كثر من مثل إحسـان عبـاس وأدونيس، ولقد استفضت في ذلك في الفصل السابع من كتابي (النقد الثقافي).

رابعاً: مرحلة ما بعد الحداثة، نحن الآن في مرحلة ما بعد الحداثة، وهي مرحلة تقوم على نقد الحداثة بداية وتستدرك عليها أخطاءها، والمقام هنا لا يتسع لي لسرد هذه الملاحظات، ولكني أحيل الراغب في الاستزادة إلى الفصل الأول من كتابي (النقد الثقافي) وهو موجود على موقعي في الإنترنت، مع سائر كتبي، وفيه تفصيل كاشف هناك.

غير أني أقول هنا إن أي حديث اليوم عن الحداثة هو حديث عن التاريخ، والحركة قد دخلت الآن في كتاب تاريخ الأدب وتاريخ الأفكار. وقلت من قبل إن الحداثة قد أصبحت طبخة بائتة، وهذا أمر له نقاشه الخاص، وفيه جدل غير قليل في فرنسا وألمانيا، ولكن ما يهمني هنا هو أن أحسم أمراً أخلاقياً ومنهجياً يتعلق بالتوهم بأن للحداثة خبايا وقصصاً مثيرة كقصص العصابات والمهربين والمخربين، وأننا نحتاج إلى رجل تائب كي يكشف لنا المؤامرات...!!!!

هذا وهم وخداع للذات وخداع للآخرين ومظنة للإثم والتأثيم، وما زلت أقول إنني تعاملت مع سؤال الشيخ عوض من باب: إذا حسن فعل المرء حسنت ظنونه، ولذا كان تصوري هو أنني حسبته يطلب مني ممارسة دوري كناقد فأعمل نقداً للذات وللخطاب، بوصف ذلك عملاً علمياً منهجياً شريفاً وفيه مروءة وخلق كريم وفيه صدق مع النفس ومع الناس، أما غير ذلك فلم يخطر ببالي في يوم جمعة شريفة كنا معاً قد خرجنا من مساجدنا متعبدين ومسبحين ومهللين ولذا صح لي أن أحسن الظن.

ولعـلي هنا قـد بلغت العـذر من الإخـوة الذين لاموني ولعلي قد أوضحت حالتي الذهنية وقت استقبال مداخلة الشيخ. وإني لم أكن سأسيء الظن بشيخ يتصدى لحث الناس على التقوى وتجنب الظن الآثم. وهذا هو سبب تعاملي مع سؤال الشيخ لحظتها تعاملاً علمياً، ولم يخطر ببالي قط أن الشيخ يقصد غير ذلك، ولكن توالي الملامة علي دفعني إلى مراجعة الحلقة فتبين لي أنني كنت ساذجاً فعلاً وبريئاً إلى حد الشفقة، وهذا ما صار.

وإن كنت صدرت مقالتي بأربع مقولات فإني أختمها بأربع أيضاً، وهي:

1ـ ليس لدي ما أخفيه.

2 - ليس لدي ما أخاف منه (سوى مراعاتي لحق الله علي).

3 - ليس لدي ما أغمغم حوله.

4 - لست من أصحاب نصف الحقيقة ولا نصف الجواب ولا نصف الموقف - وكفى.

* فيما يتعلق بكتبي التي أحلت إليها في المقال أرجو العودة إلى موقعي في الإنترنت (www.alghathami.com) والكتب كلها هناك.